دراسات لغوية ٤

المستشرقون والمناهج اللغوية

- المنهج التاريخي
- المنهج المقارن
- المنهج الوضعي
- المنهج الإحصائي

د. اسماعيل أحمد عمايرة

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٩٩٢م

دار حنين

المستشرقون

والمناهج اللغوية

- المنهج التاريخي
- المنهج المقارن
- المنهج الوضعي
- المنهج الإحصائي

د. اسماعيل أحمد عمايرة

دار حنين

٤١٨ع.ع٤
اسما

اسماعيل أحمد عمايرة

المستشرقون ومناهجهم اللغوية / اسماعيل أحمد عمايرة

- عمان : دار حنين ، ١٩٩٢.

(١٦٤) ص .

ر . أ (٦٣٧/ ٩ / ١٩٩٢) .

١ - اللغة العربية - طرق بحث أ - العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

دار حنين

دار حنين العبدلي عمارة الددو-مقابل مركز جوهرة القدس- الدور الثاني

ص.ب ٢١٥٣٤٦ جبل القصور ت ٦٩٥٦١١ فاكس ٦٩٥٦١١

عمان - الأردن

المحتويـــات

المنهـج الوصفـي

المنهج الإحصائيّ

مقـــدّمـة

الحمـد لله ربّ العالمين، والصـلاة والسلام على رسـول الله،

وبعد،

فـلا شك في أهميّـة المنهج لأيّ علم من العلوم، ولعـلّ جـلّ الأسباب التي تكمن وراء الأخطاء الفادحة التي يقع فيها الباحثون يعود إلى المنهج : عدم وضوحه، أو عدم وجوده أصلاً، أو السير على هَدْي خطواته من غير بصيرة كافية . . . إلى غير ذلك من ملابسات.

ولا ريب في أنّ ممّا يترتب على من أراد أن يفهم وجهة نظر غيره ـ فضلاً عن أن يحاكمها ـ أن يكون على بصيـرة بطبيعـة المنهج الـذي صدرت عنـه، وإلّا كان حكمـه على تلك الأفكـار حكمـاً انفعـالياً، أو فَجّاً ينقصه النضج والتمحيص. وقد يتشجع لتلك الأفكار ـ لحلاوة مؤقتة فيها ـ فيكون إقباله عليها كإقبال من يتناول شيئاً طعمه سائغ ولٰكنّه ينطوي في أصل شجرته على ما يضرّ ولا ينفع.

بَيْدَ أن فهم منـاهـج الآخـرين لا يُلزمنـا بالسّير عليها، والاحتكام إليها، إلّا بمقدار قناعتنا بها، واتّفاقها مع منهجنا، بل إن في فهم تلك المناهج ما يُعين على معرفة المسلّمات التي تمثّل نقاط الالتقاء بيننا وبينهم.

ومن الأسس التي تقوم عليها مناهج البحث تلك الخطوات العمليّة، التي تؤدّي إلى أدلّة ذهنيّة أو ماديّة، في الوصول إلى الحقيقة. فلكلّ منهجٍ خطواته وأدواته التي قد يستعين بها من يسير على منهج آخر، ما دامت تُوصل إلى الحقيقة، وهي الضالّة المنشودة لكل منهجٍ يتطلّع إلى السّداد والصواب.

فالمناهج، إذن، وسائل وطرائق تسعى إلى غاياتها، وينبغي على الباحث الذي يقضي مسيرته في البحث عن الحقيقة أن يُلمّ بتلك الطرق، ليعرف أيّها الأخصر والأيسر. وليست الطريق هي المهمة، بل ما تؤدي إليه، فإن رأى مثلاً أن ما قطعه في منهج من المناهج أسلمه إلى عقبة تستلزم منه أن يسير على هدى منهج آخر كان عليه أن يغيّر.

وهكذا مناهج البحث اللغويّ، نلمّ بقواعدها، وطرائقها، ولكننا لانتعصّب لها، فما قيمة ألّا تأخذ بقواعد المنهج الوصفي في جزئية ما وأنت تسير في بحث يتطلب في عمومه المنهج التاريخي؟، وما معنى ألّا تأخذ بالفوائد الإحصائيّة إذا كُنت مُتنبهاً إلى مغبّة ما يمكن أن يترتب عليها من محاذير؟ وهكذا، فإن المادة اللغويّة هي: الجسم الذي تتعاور المناهج اللغويّة، بإمكاناتها المتعددة للكشف عن حقيقته، فما قد يراه الباحث من خلال منهج معين يكمله ويأزره أو يصححه ما قد يراه من جانب آخر، من خلال منهج آخر.

* * * *

أما هٰذا البحث فيحاول أن يقف بالقارىء على أظهر المناهج التي تُدرس عليها اللغات في العصر الحديث. ولكن الحديث عن المناهج اللغويّة ـ هنا ـ ليس حديثاً مطلقاً، بل هو مقيّد بإظهار هٰذه المناهج من

خلال الدراسات الاستشراقيّة مطبقة على اللغة العربيّة.

ولا يقتصر الحديث عن مناهج المستشرقين على الوصف والتصوير، بل يتجاوز ذلك إلى النقد والتقويم. فلا شكّ في أنّ كثيراً من دراسات المستشرقين اللغويّة قد اتّسم بالصبر والأناة، واتخاذ العدّة في البحث، من اطّلاع على مناهج البحث اللغوي، وقدرة على المقارنة بين الظواهر اللغويّة في لغات مختلفة... ولذا كان لا بدّ لمن أراد أن يدرس جهودهم من أن يأخذ بعين الاعتبار الأمور الآتية:

- الصبر والأناة.
- المعرفة الدقيقة بمناهج البحث اللغوي الاستشراقي، والقدرة على الربط بينها وبين مناهج البحث اللغوي بعامة.
- التنبّه إلى دواعي القصور وأسباب الخطأ في الحكم على العربيّة.

وقد تناول هذا البحث أربعة من أبرز المناهج التي سار عليها المستشرقون في دراسة العربيّة:

- المنهج التاريخيّ.
- المنهج المقارن.
- المنهج الوصفيّ.
- المنهج الإحصائيّ.

ولمّا كنّا لا نعلم شيئاً عن أيّ دراسة تتناول موضوع هذا البحث بعامّة، فقد اجتهدنا في أن يُكثّف الجهد بالعودة إلى الدراسات الاستشراقيّة قَدْر الطاقة. وقد حرصنا على أن نُحيل إلى أظهر الدراسات التي تتناول جزئيات هذا البحث، حتى تتسنّى العودة والتوسّع لمن أراد.

وقد حرصنا على أن نشير إلى الجذور المنهجيّة في البحث اللغوي عند العرب. فقد سار القدماء على مناهج متباينة أملتها دوافع شتّى. ولعلّ من أظهر معالم هذه المنهجيّة الالتزام بالمعياريّة التي تكلّلت بذلك النسيج المتكامل لنظرية «العامل» في مجال النحو. وهي منهجيّة أملتها الحاجة إلى استقرار اللغة القرآنية وإبراز ثوابتها، من خلال الوقوف على القواعد المطّردة. وهي كذلك نظريّة تعليميّة تربويّة بمقدار ما هي تأصيليّة، تسعى إلى التعليل المقنع وإلى الرغبة في تجنّب التناقض ما أمكن. ولم تخل آراؤهم كذلك من نظرات فطريّة في مجال المنهجيّة التاريخيّة والوصفيّة. بَيْد أن ذلك كله لم يَعْدُ الملاحظة العابرة التي لا تتغلل في أعماق اللغة، ولكنها جديرة بأن يُشار إليها بوصفها إرهاصات ابتدائية أسهمت في معمار النظرة المنهجيّة المتأخرة على نحو أو آخر. كيف لا وقد اعتمدها المستشرقون في درسهم اللغوي؟.

وعلى أيّ حال، فالظاهرة اللغويّة ـ كما سنوضّح ـ تشبه بعض الأشكال في الطبيعة، إنها كالمكعب، لا يكفي لوصفه أن يُسَلَّط عليه الضوء من نور مصباح واحد، يضيء سطحاً واحداً من مساحاته، وتخفى عندئذٍ أسطحه الأخرى. ولذا كان أدعى في محاولة الإحاطة بحقيقتها أن تُسَلّط على أبعادها أضواء المناهج المتعددة، وبحسب الحاجة إلى ذلك.

نسأل الله أن ينفع بهذا البحث، وأن يغفر ما يمكن أن نكون قد وقعنا فيه من خطأ. والله ولي التوفيق.

إسماعيل أحمد عمايرة

أظهر المناهج اللغويّة عند المستشرقين

الصلة بين المناهج الاستشراقية والمناهج الغربيّة

«ونحن في هـذا نـطبّق على الإسـلام وتـاريخـه، وعلى المؤلفات العربيّة التي نشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن».

رودي باريت(١)

ننتوي أن نسلك في الحديث عن مناهج المستشرقين في دراسة العربيّة، طريقاً نبين فيها ما يتَوازَىٰ مع هذه الطريق من مناهج للغربيين بعامّة في دراسة لغاتهم هم، حتّى يتبيّن كيف ارتبطت مناهج المستشرقين في النظر إلى العربيّة بالمعايير النقديّة التيَ عولجت بها لغاتهم.

فالمستشرق يسعىٰ إلى اختراق الأفق الفكري الذي تفرضه البيئة حوله، بإلقاء نظرة على عالم الشرق، وهو ـ في الوقت نفسه ـ يُطبّق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربيّة التي يشتغل بها المعيارَ النقديّ نفسَه الذي يطبقه على تاريخ الفكر في بلاده، وعلى مصادره هو

وهو يدخل على اللغة العربيّة بعد أن يكون ـ في العادة ـ قد تمكّن من لغته، ونحوها، وصرفها، بقدر أو بآخر.

ويظلّ الإنسان ـ مهما ألمّت به من ظروف ـ كائناً اجتماعياً ينتمي إلى بيئته وعصره، يحمل من ملامحها ـ وإن تميّز بعض التميّز ـ ما يكفي لربطه بهما على نحو أو آخر.

وكذا الاستشراق، فهو نشاط بشريّ، وهو وليد بيئته وعصره، والمستشرقون يتخصّصون في ثقافات غريبة عن ثقافاتهم، غير أنّهم يظلّون في مناهجهم، ومصادرهم الماليّة، ومكانتهم الاجتماعيّة وثيقي الصلة بمجتمعاتهم، وحكوماتهم،فكراسي الاستشراق مُعْتَرف بها رسمياً في جامعاتهم. «وتوشك أن تكون ممثلة في كل جامعة من الجامعات بكرسي يشغله أستاذ. . . ونحن جميعاً ـ المتمتعين بهذه النظم ـ نعترف شاكرين بأن المجتمع ممثلاً في الحكومات والمجالس النيابيّة يضع تحت تصرفنا الإمكانات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق، وللحفاظ على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار»(٢) على حدّ تعبير «باريت».

فالمستشرق، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يدور حوله من حركات علميّة. ولعلّ في هذا ما يفسّر الدهشة والاستغراب اللذين يرتسمان على وجه المسلم وهو يقرأ كتابات المستشرقين. فهم يَقيسون الأمور بموازين مختلفة إلى حدّ كبير عن مقاييسنا. بل إن اختلاف المقاييس هو الذي أوقع كثيراً من المستشرقين في الخطأ وهم يَزِنون بها ثقافة أخرى مختلفة، كما أوقعنا ذلك في خطأ مقابل حين أقدمنا على تقويم أعمالهم دون معرفة كافية بطبيعة مناهجهم، ومستلزماتها، والاستنتاجات المترتبة عليها.

إرهاصات النظرة المنهجيّة في أعمال المستشرقين

وتبقى الصلة وثيقة بين اللغة والاستشراق، بمناهجه، ونتائجه؛ حتى لقد بالغ أحدهم في هذا التقدير. فذهب إلى أنّ «الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة»(٣). والمستشرقون ـ وهم يدرسون العربيّة ـ ينطلقون في الغالب، من المناهج التي تُدْرس بها لغاتهم، أو من خلال تأثرهم الكبير بتلك المناهج.

كان الأوروبيون يتعاملون مع لغاتهم تعاملاً تقليدياً «فيلولوجياً»، أي يدرسون اللغة من خلال النصوص. ولكن اللغةَ ليست الهدف، بل هي وسيلة لفهم ما استغلق من النصوص الإغريقيّة واللاتينيّة. فإذا ظفر أحدهم بهذه الغاية فهي أساس مقصده.

وهذا ما كان يتمّ في خط موازٍ يرسمه المستشرقون على صعيد اللغات الشرقيّة. فإن تدرّج أحدُهم وتجاوز هذا الهدف ـ وهو فهم النصوص اليهوديّة، أو النصرانيّة، أو الإسلاميّة ـ إلى أهداف أخرى ذات طابع لغوي، فإن ما يقوده إلى ذلك الحاجةُ إلى التعمّق في فهم الجوانب النصيّة ومعانيها.

وبهذه الروح كان يدرس العربيّة كلٌّ من المستشرق الهولنديّ «توماس إربينيوس» Erpenius (١٥٨٤ ـ ١٦٢٤)، والألماني «كريستمان» Christmann (١٥٥٤ ـ ١٦١٣)، و «شولتنس» Schultens (١٦٨٦ ـ ١٧٥٠) وغيرهم(٤).

ومن المعلوم في تاريخ الدراسات اللغويّة الأوروبيّة أن الدراسات

التاريخيّة المقارنة بين اللغات المختلفة ـ وبخاصة الأوروبيّة منها ـ قد أخذت تنشط وتزدهر في القرن الثامن عشر. ومع أواخر القرن الثامن عشر ومطالع القرن التاسع عشر بدأ علم اللغة يترسّم معالمه بوصفه علماً مستقلاً عن الثقافة والفلسفة. بل بدأت مناهج هذا العلم تتّضح وتتميّز. فكان من أوضحها: المنهج التاريخي، ومنه المنهج التاريخي المقارن، والمنهج الوصفي. والمنهج الاحصائي.

ويجدر أن يُنبّه إلى أنّ القواعد العلميّة التي يسترشد بها الباحثون، إن هي إلّا وسائل في يد الباحث. وقد يُساء استخدام الوسيلة، بقصد أو بغير قصد، فلا يكون العيب ـ عندئذٍ ـ في الوسيلة نفسها، بل في استخدامها، وفي طريقة توجيهها.

وعلينا أن نتذكر كذلك أنّ هذه المناهج لم تولد من فراغ، فهي نتاج تجارب ضاربة في أعماق تاريخ البحث العلمي. ولو أمعنا النظر في تاريخ علومنا اللغويّة لوجدنا آثاراً لها عند علمائنا القدامى كسيبويه، والثعالبي، وابن جنّي، وابن فارس، وغيرهم.

بيد أن هذه المناهج، في مفهومها الاصطلاحي نَضَجَت واتضحت معالمها في العصر الحديث، وقد تحدّدت معالم بعضها في القرن العشرين ـ كالمنهج الوصفي ـ وبذا أصبح في ميسور الباحثين أن يعودوا إلى قواعد منهجيّة محدّدة يهتدون بها في البحث اللغوي. وقد انتفع بها المستشرقون على الهَدْي الذي طُبِّقت عليه في لغاتهم الأصليّة. ولعل أهم هٰذه المناهج وأظهرها ما سوف نتناوله بالحديث في هذه الدراسة وهي: المنهج التاريخي، والمنهج المقارن، والمنهج الوصفي ومنه المنهج الإحصائي.

ويَجدر التأكيد على أن هٰذه المناهج لا ينبغي أن تتحوّل القواعد فيها إلى قيود وأغلال يُصَفَّد بها الباحث قدراته، ومواهبه. ولا ينبغي كذلك أن تتحول إلى جنّات آسرة يدخل الباحث إحداها، فلا يرى إلّا ما يراه ضمن حدودها. فيفوِّت بهذا على نفسه ما يمكن أن يراه في المناهج الأخرى. وقد يتعصّب لجنّته فينكر على الآخرين ما يتوصّلون إليه من منظارِ منهج آخر.

ولا شك في أن أعمال المستشرقين عكست نمطين متمايزين: ذلك النمط الذي أسرف في الالتزام بمنهج بعينه، وقد يحمله ذلك على صرف النظر عمّا سواه، عن جهلٍ أو تعصّب؛ ونمط آخر انتفع في الوصول إلى سبر أعماق الظاهرة اللّغويّة بمناهج متعددة.

المنهج التاريخي

المقصود بالمنهج التاريخي

لنَتصّور أنّ الباحث التاريخي يريد أن يبحث في ظاهرة لغويّة ما في العربيّةَ، فإنه يحاول أن يوفّر لنفسه أقدمَ المصادر التي استعملت هٰذه الظاهرة، فقد يبدأ بالنقوش المكتوبة، ثم بالدواوين الشعريّة والنصوص الجاهليّة،ثم بالنصوص الإسلاميّة، وهكذا إلى أن يصل بها إلى آخر مجالات استعمالها الراهنة. وخلال هٰذه الرحلة الطويلة يصف الكلمة صوتاً، وصرفاً، ومعنىٰ. فيهتم ببيان ما طرأ عليها من تغيّرات صوتيّة عبر رحلة استعمالها مكاناً، وزماناً، ويُبَيِّن كذلك معناها، أو معانيها الحقيقيّة، ثم المجازية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقد ينطلق في اعتبار ما هو حسيّ فيعده أقرب إلى الحقيقة، وما هو معنوي فيعده أقرب إلى المجاز، فإن كثرت المعاني الحقيقيّة للكلمة، أو المعاني المجازيّة اجتهد في أن يُحدد الزمن الذي يعود إليه كل معنى، من خلال العودة إلى أقدم النصوص، وأوثقها، ويُراقب الصّيغ التي جاءت عليها الكلمة صرفيّاً، من خلال استعمالاتها النصيّة، ويحدد الاشتقاقات التي ثَبَت استعمالها

والسياقات النحويّة والبلاغيّة والتاريخيّة التي قد يكون لها أثر خاص في إلقاء الضوء على تاريخ الظاهرة.

وهو في هٰذا كلّه يُراقب تطوّر الظاهرة، ويَرْسُم خطّها البيانيّ من حيث الاستعمال: قلّةً وكَثرة، حياةً وموتاً، ثمّ يحاول أن يتبيّن القوانين التي تحكم مسارَ الظاهرة، والعوامل اللفظيّة والحضاريّة التي قد أثّرت فيها، أو تؤثّر فيها، أو سوف تؤثر فيها. وعلى هٰذ فإن الباحث التاريخي يَعُدُّ نفسه مسئولاً عن الإجابة عن تاريخ الظاهرة اللغويّة: ما أصلها؟ وماذا أصبحت؟ ومتى؟ وإلى أين تتجه؟.

الصلة بين المنهج التاريخي في دراسات المستشرقين ونشأة المنهج في أوروبا

أصبح هٰذا المنهج يغلب على طابع البحوث اللغويّة في أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، لأسباب نتحدث عنها في حديثنا عن الشق المقارن من المنهج التاريخيّ. وقد انعكس هٰذا الطابع على بحوث المستشرقين ودراساتهم للعربيّة.

ولو نظرنا في الدراسات السابقة للمنهج التاريخي لوجدنا أنّها دراسات نصيّة ترمي إلى فهم النص من خلال المعايير المُسْتقاة منه، بغرض الوقوف على معناه. أما تتبع الظواهر من حيث تطوُّرها التاريخي فلم يكن المطلب الأساسي في تلك الدراسات. وبالتالي فإن المفارقة واضحة بين المنهج التاريخيّ والمنهج المعياريّ الذي سبقه، وإن كانا يلتقيان في الانطلاق من النص ومحاولة فهمه.

وثمة مفارقة أيضا بين المنهج التاريخيّ والمنهج الوصفيّ. وسوف

نُلمح إليها، ثُم نَعود إلى التفصيل فيها عند الحديث عن المنهج الوصفيّ. فالمنهج الوصفي يَدْرس اللغة المنطوقة، ولذا فهو يَحْتفي بدراسة اللّهجات. أمّا المنهج التاريخيّ فيهتم باللغة المكتوبة التي دوّنت في وثائق بغض النظر عن جانبها المحكي المنطوق.

ولمّا كان المنهج التاريخيّ أسْبقَ إلى الظهور من المنهج الوصفيّ الذي ازدهر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد انعكس هذا أيضا على أعمال المستشرقين التي تأثرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالمنهج التاريخي، فكان من آثار ذلك أن دَرسوا العربيّة التراثيّة، ثمّ توجهوا في القرن العشرين إلى الاهتمام باللهجات المعاصرة.

وقد كان هٰذا عُرفاً سائداً في الدراسات الغربيّة قبل أن يطبقه المستشرقون على العربيّة، وقد أُخِذَت بهذا المنهج اللغات الأوروبيّة القديمة كاليونانية، واللاتينيّة، وأُهملت اللغات الحديثة؛ إذ كان يُنظر إليها على أنّها «شيء متغيّر خدّاع. وأن الجزء الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الموجود في اللغة المكتوبة»(٥).

إنّ ما ذُكر يمثل ذلك المقدار الذي يربط ربطاً عضوياً بين الدراسات الاستشراقية اللغويّة والبيئة العلميّة التي نشأت فيها. فإذا أضفنا إلى ذلك أسباباً أخرىٰ تَبيَّن لنا السّرّ الكامن، والحافز القوي وراء هٰذه الدراسات. فقد سبق الحديث عن الأسباب المختلفة التي كانت تسوّغ الحركة الاستشراقية برُمّتها من حَضاريّة وتنصيريّة، ولاهوتيّة وغيرها في بحث آخر(٦).

الدراسات اللغويّة التراثية والمنهج التاريخي

لم يتيسّر للعربيّة ـ في الماضي ـ دراسات تاريخيّة لغويّة ذات

شأن[7]، فقد تركزت جهود اللغويين على دراسة اللغة إلى عصر الاحتجاج اللغويّ. أي من العصر الجاهلي مروراً بصدر الإسلام وانتهاء بحوالي ١٥٠ هـ، ويقدّر هٰذا بثلثمائة عام تقريباً، وذلك بقصد إيجاد معايير ثابتة للغة تلتزم بها الأجيال الناطقة بالعربيّة في العصور اللاحقة، وتكون معايير عصر الاحتجاج حجّة يسار عليها في الاهتداء إلى الفصحىٰ.

أما العصور التالية لعصر الاحتجاج فلم تُحظ بدراسات تفصيلية مهمة. بل كان الاهتمام بها حاشية على اهتمامهم بلغة عصر الاحتجاج.

أمّا أن تُوصف قواعد اللغةِ المتطوّرة في العصور اللاحقةِ بقصد المسير عليها فهذا مَسْعىً لا يُقرّه القدماء، لأنه في أيسر ما يقال عنه: إنه خارج عن المعيار المنشود الذي تُقرره قواعد عصر الاحتجاج. ولذا كان في وسع المرء أن يَسِمَ منهج القدماء بصفة عامّة جامعة، وهي «المعياريّة»، وأن يسمي منهجهم بـ«المنهج المعياري».

ولا يعني هٰذا أن غير أصحاب المنهج المعياري لا يعتنون بالمعايير، فكل مَدرسة لغويّة تهتم بذلك على نحو أو آخر، بَيْدَ أن أصحاب المنهج المعياريّ يهتمونَ بالمحافظةِ على صفةِ «الثبوت» والاطّراد اللذين يُلزمان الناس عبر العصور بهذه المعايير.

وممّا يسوِّغُ اقتصار علمائنا القدماء على دراسة اللغة إلى عصر الاحتجاج، رغبتهم في الحفاظ على اللغة في صورتها التي ترتبط بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وسيرة السلف الصالح من المسلمين الأُوَل. ولذا فإنّهم لم يكترثوا بالعصور اللاحقة، إلّا في الحدود التي تَشُدّ الناس إلى لغة المعيار الثابت، لغة عصر الاحتجاج.

وفي هٰذا ما يوضّح الهدف من دراسة بعض اللغويين لظاهرة «اللحن اللغويّ» في العصور اللاحقة لعصر الاحتجاج. بل إن في تسميتهم لما ألّفوه من كتب في هٰذا الصدد ما يشير إلى غرضهم هٰذا. فهي دراسات ترمي في جملتها إلى إصلاح ما يقع فيه الناس من خطأ، أو ردّهم إلى المعايير الثابتة التي تمثل أساليب العرب ضمن إطار زماني لا يتجاوز عصر الاحتجاج ولا يتخطى بيئات مكانية مُحَدّدة تمثلها قبائل معيّنة، وهي أقرب القبائل إلى تمثيل لغة القرآن.

أمّا ما سُمّي عصر الاحتجاجِ اللغويّ فهو في حقيقته عصور لغويّة عديدة تمتدّ على رقعة زمانية تضرب في عمق الزمن إلى ما لا يقل عن ثلثمائة عام، تطورت اللغة خلالها وقبلها تطوراً أثّر فيه اختلاف الزمان والمكان والجوار وغير ذلك من عوامل كثيرة، وبخاصة قبل الإسلام. ولم يفُت القدماء من اللغويين أن يلتفتوا إلى ذلك بحديثهم عن تباين اللهجات والأصوات والتراكيب أحياناً. بل لم يفتهم أحياناً أن يشيروا إلى أثر الزمان في تحوّل الصيغ والتراكيب من زمن إلى زمن، كأن يصف ابن السرّاج مثلاً في كتابه «الأصول في النحو» واو القسم بأنها أكثر أدوات القسم شيوعاً، قال: «فأكثرها الواو» ثم يشير تاريخياً إلى أن «الأصل الباء» ونحو هذه الإشارة التاريخيّة كثير، بَيْدَ أنها إشارات خاطفة عارضة وليست مستهدفة متقصدة.

حاجة العربيّة إلى المنهج التاريخي

لاشكّ في أن الحفاظ على اللغة القرآنية هدفٌ أسمىٰ ينبغي أن تتجه نحوه الأنظار، وأن توجّه إليه الجهود. بَيْدَ أن هٰذا لا يتعارض مع هَدف آخر يتطلبه المنهج التاريخي، وهو مراقبة التطوّر الدلاليّ للكلمات والأساليب العربيّة نفسها، ورصد ما خالط العربيّة من جرّاء احتكاكها بالفارسيّة، والتركيّة، والإغريقيّة، والسريانيّة وغيرها. ونحن في حاجة إلى الدراسات اللغويّة التي تبيّن لنا تجربة الأخذ والعطاء

بين لغتنا واللغات التي احتكت بها، ودراسات أخرىٰ توضّح تطوّر الألفاظ دلاليّاً في كل مصر، وما طرأ عليها من تغيير في الشكل والمضمون في كل عصر من عصور العربيّة. وقد تزداد الحاجة إلى دراسات أسلوبيّة تبين المعاني البلاغيّة والأسلوبيّة الجديدة، سواء أبفعل التطوّر الذاتي كانت أم بالتطوّر المترتب على اطّلاع أدبائنا وكتّابنا على الآداب الأخرىٰ. فقد يَقتل فينا إلْفُنا لألفاظ لغويّة أو أنماط بلاغية تشيع في عصرنا القدرةَ على تبيّن الأصول التي وفدت منها هٰذه الأنماط. بَيْد أن التتبع التاريخي يحتاط لذلك فيحاول أن يرصد هٰذه الظواهر في منابعها، وتوجهاتها، وما تؤول إليه، مع تحديد ذلك كله زمانيّاً ومكانيّاً، والسعي نحو تفسيره تفسيراً ينطلق أصلاً من الواقع النصّيّ الذي يُعَدّ الوثيقة التاريخيّة في يد الباحث التاريخيّ.

وعلى هٰذا تقّل في نظر الباحث التاريخيّ أهميّة تلك التعليلات المنطقيّة أو الفلسفيّة التي قد يتكىء عليها أصحاب المنهج المعياريّ، كما تقل كذلك أهميّة التعليلات التي يقتضيها التفسير الشكلي القائم على مبدأ البحث عن «العامل النحويّ».

ومن المعلوم أن المنهج المعياريّ القديم قد داخلته الأساليب الفلسفية والمنطقيّة كالاحتجاج لأصليّة المصدر وفرعيّة الفعل بحجة أن المصدر أحادي المدلول، وأما الفعل فثنائيّ أو مركّب إذ هو يدل على حدث وزمن، أما المصدر فيدل على الحدث فقط، فهو «بسيط» وليس مركباً، ولذا كان أصلاً، لأن الأصل يكون بسيطاً والفرع يكون مركّباً. إنّ مثل هذه التعليلات تُعَدُّ مرفوضة عند أصحاب المنهج التاريخيّ.

وعلى هٰذا فإن البحث التاريخي يقوم على رغبة في إعادة هيكلة

الظاهرة اللغويّة عبر العصور من خلال ما تبقّىٰ من آثارها، فإن كان ثمّة مجال للاستنتاج فينبغي أن يكون استنتاجاً من خلال النصوص والوثائق التاريخيّة، لتصور الحلقات المفقودة. وعلى هٰذا فإن الباحث التاريخيّ في اللغة يشبه عالم الآثار الذي يَتهدَّىٰ بتصوّر مافُقِدَ من قطعة أثريّة في ضوء ما عُثَر عليه منها، وبما يتناسب وحجم الفراغ الموجود، سعياً وراء تكوين عام لهيكل الظاهرة في السياق التاريخيّ العام للغة.

وسوف أتناول فيما يأتي أمثلة توضح أهميّة المنهج التاريخيّ، وما يمكن أن يحققه على صعيد الظاهرة اللغويّة في ماضيها ومستقبلها، في المعجم، والنحو، والصرف:

١ ـ الدراسات المعجميّة والمنهج التاريخي:

العربيّة بحاجة ماسّة إلى معجمات لغويّة تكمّل معجماتنا المعياريّة القديمة، وتبيّن لنا أموراً جديدة، منها:

أ ـ المَيْز بين العربي الأصيل، والمعرّب أو الدخيل، الذي وفد إلى العربيّة من لغات أخرى على مرّ العصور، وسوف أتناول هٰذا الجانب بشيء من التفصيل في الحديث عن الجانب المقارن من المنهج التاريخيّ.

ب ـ تتبع سيرة حياة اللفظ العربيّ وذلك عبر مراحل زمنيّة متتابعة وفي مجالات استعماله المختلفه مع ملاحظة ما طرأ على الألفاظ من تطوّر أو تغيير في الشكل والمضمون في كل عصر من عمر اللغة، فيُجتهد لذلك في بيان المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازيّ، مع وضع المعايير اللازمة لذلك، فإن كثرت المعاني الحقيقيّة للكلمة أو المعاني المجازيّة سعىٰ الباحث إلى تحديد الزمن الذي يعود إليه كل معنى من خلال العودة إلى

أقدم النصوص وأوثقها، وقد يستأنس بالجانب المقارن من المنهج التاريخيّ.

إن عملاً كهذا سيكون أيسر علينا لو قمنا به ـ على مشقته ـ منه على أمم أخرى بالنسبة للغاتهم التي أنجزت لها معجمات تاريخيّة. فاللغة العربيّة لم ينفصل ماضيها عن حاضرها انفصال الماضي عن الحاضر في لغات أخرى كالإنجليزيّة مثلاً. إذ ما تزال العربيّة تتواتر فيها أسباب ربط الماضي بالحاضر، مما ييسر على الأجيال ـ وليس على المتخصصين فحسب ـ أن يتصلوا بمراحلها التاريخيّة فيفهموها. ومع ذلك ما تزال العربيّة تفتقر إلى معجم تاريخيّ تأصيليّ على غرار معجم أوكسفورد التاريخيّ للغة الإنجليزيّة مثلاً.

ج ـ التعرف على المؤثرات التي تتحكم في سيرة حياة الألفاظ العربيّة. ولا تخفىٰ أهميّة ذلك من جانبين: جانب يقف بنا على أسباب غياب كثير من الألفاظ التي امتلأت بها معجماتنا عن أفق الاستعمال اللغوي، أو كادت، أو انحصارها، لتصبح رمزاً خاصاً بالماضي أو حكراً على فن مُعّين، أو حرفة مخصصة، أو ظروف بيئيّة مميزة المناخ، أو العادات والتقاليد . . . أو ما شاكل ذلك.

والجانب الآخر يقف على مجموعة العوامل التي يمكن أن تتحكم في مستقبل الثروة المعجميّة، وذلك بالوقوف على أسباب موت الألفاظ وحياتها.

المستشرقون ومشروعات المعجم التاريخيّ للعربيّة

لقد «كان طبيعياً أن يستعمل علماء الاستشراق الأوروبيون المعاجم والموسوعات العربيّة في البداية للاستعانة بها في دراساتهم،

وكان من المسلّم به عندهم أنه من العبث وإضاعة الجهد بذل جهود جديدة في هذا المجال طالما أنّ المعاجم العربيّة التي كتبها العلماء العرب أنفسهم متوفرة في كل فرع وموضوع، فضلاً عن الثقة الكبيرة التي تحيط بتلك القواميس، والأمانة العلميّة، والدقة، اللتين تحلّى بهما أجيال من اللغويين العرب والمسلمين»(٨) على حدّ تعبير «أولمان».

ويقول أولمان «ثمّ بدأ علماء الاستشراق يتحسّسون جوانب النقص والقصور في ميدان المعاجم العربيّة»(٩) ويُحَدّد هٰذا القصور في النقاط الآتية:

«أوّل وجوه القصور هـذا الطابـعُ المعياريّ الـذي تتّسم به تلك المعاجم، فهي تذكر نموذجاً لغوياً، لكنها تُهمل التطور اللغوي للنموذج المذكور.

«وثانيها ضيق ومحدوديّة الرقعة التي تغطيها القواميس العربيّة إذا قورن ذلك باتساع دائرة الثقافة العربيّة. . .

«وثالث تلك العيوب فُقْدان الدقة الناتـجُ عن عدم التفـريق بين المعنى العام أو الإجمالي لجذر الكلمة وبين المعنى الفعلي الواقعي، فللكلمات دقائقُ وظلالٌ تظهر في سياق النص، وتحدّد ضِيْق المعنى أو اتساعه. وتورد المعاجمُ في أحيان كثيرة بدلاً من المعنى الأصلي للكلمة الشيء المعنيّ. . . »(١٠)

إنّ في وسع المرء أن يستخلص مما سلف بعض الأمور:

أولاً: لم يكن تنبّه المستشرقين في القرن التاسع عشر إلى جوانب النقص في الدراسات المعجميّة العربيّة، آتياً من فراغ. بل جاء مُزامناً

لظهور المنهج التاريخي في البحث اللغوي في ذلك القرن.

ثانياً: لم يكن إغفال العلماء القدامى لذلك عن تقاعُس. فإنّ لكل منهجٍ ثماره. ولقد سار القدامى على مناهج سديدة أسفرت عن تلك الجهود الطيبة التي ما يزال الدرس اللغويّ يفيد منها. وقد اعتمد عليها المستشرقون، بل اعتمدوها في دراساتهم الخاصة، وقلّدوها، من أمثال يعقوب جوليوس (١٥٩٦ - ١٦٦٧م) الذي اقتصر على ترجمة التعليقات الواردة على الجذور اللغويّة عند الجوهري والفيروز آبادي إلى اللاتينيّة، واعتمد «لين» في وضع معجمه على تاج العروس والتزم الدقة في ترجمة الكلمة العربيّة(١١). ويوازي هذا على صعيد الدراسات النحويّة اعتمادهم على الكتب النحويّة العربيّة في تعلّم العربيّة(١٢).

ثالثا: إن من الطبيعي أن تسفر الحاجة عن إجراء دراسات جديدة في ضوء الرؤية الجديدة للغة من خلال المنهج التاريخيّ أو سواه. وليس عيباً أن يشار إلى مواطن النقص في الدراسات القديمة، بل العيب ألّا يُسَدّ النقص وأن ينظر إليها على أنها «وُلدت بأسنان».

ولعلّ من أهم جهودهم في مجال التأليف المعجميّ في ضوء المنهج التاريخي ما عمله المستشرق الهولندي «راينهارت دوزي» الذي صنف ما أسماه بذيل المعاجم العربيّة، ونقل بعضه إلى العربيّة عن الفرنسيّة محمد سليم النعيمي في خمسة مجلدات. وقد حاول «دوزي» في هٰذا المعجم أن يعقّب على المعاجم العربيّة بذكر الكلمات التي لم ترد في المعجمات القديمة، مما شاع في آداب العربيّة، في ما أسماه «مصنفات العرب في القرون الوسطى». ويمثل لذلك بمؤلفات ابن القوطيّة، وابن خلدون، وابن بطوطة، ومن مصادره: ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة وبعض

كتابات الأطباء والجغرافيين وغيرهم[١٣]. وقد اعتمد كثيراً على بحوث المستشرقين. ومهما يكن القول في عيوب هذا المعجم التاريخي الرائد ـ إذ تحدث عنها المترجم في مقدمة الترجمة العربيّة له ـ فقد جاءت محاولة «دوزي» هٰذه ثمرة من ثمار المنهج التاريخي، فقد نشر معجمه هذا سنة ١٨٨١م، أي في الوقت الذي كان فيه هذا المنهج يعطي ثماره.

أما الثمرة الثانية فتتمثّل في مشروع «فيشر» الذي لم يُقدر له أن يَخرج إلى حيّز الوجود، فلم يصدر منه سوى المقدمة وبعض مادة الهمزة، وقد نُشر ذلك في القاهرة بعنوان «المعجم اللغويّ التاريخيّ» بعد موت صاحبه بوقت طويل. وبذا فإن مشروع «فيشر» الذي مات بموته عام **١٩٤٩** لم يتجاوز في حظّه من الكمال ما حظي به مشروع معجميٌّ آخر للمستشرق الألماني «كريمر». فقد ظهر من ذلك عام **١٩٥٢ ـ ١٩٥٤** ملزمتان فيهما مادة الهمزة، بعنوان «معجم تيودور نولدكه للغة العربيّة الفصحى». وقد نسبه «كريمر» إلى «نولدكه»، لأنه اعتمد فيه على حواشي «نولدكه» (المتوفى **١٩٣٠**) وتعليقاته التي عقب بها على موسوعة «فرايتاج» العربيّة اللاتينيّة.

ومن الجهود المبذولة في ميدان المعجم ما يعكف عليه فريق من المستشرقين الألمان ـ ومن بينهم «أنطون شبيتالر» و«هلموت جيتيه» ـ لإصدار معجم تاريخيّ للعربيّة الفصحى، وقد صدر منه مجلدان. بَيْدَ أنّ هٰذا المعجم يظل أقلّ طموحاً في خطته من معجم «فيشر».

٢ ـ الدراسات النحويّة والمنهج التاريخي

يحسب المرء للوهلة الأولى أن النحو العربي بقواعده، يشكّل مظهراً من مظاهر الثوابت في العربيّة، تلك الثوابت التي لا ينبغي أن يمسها

قانـون التـطور. ولا شك أنّ ما يُملي هٰذا التصور أن جهود المعياريين انـطلقت أصـلاً من هدف يُتَقَصَّد منه الحفاظ على اللغة في أنموذجها الـذي يمثله عصـر الاحتجـاج اللغويّ، وذلك لكي يتاح للأجيال عبر العصور، أن تعود إلى هٰذا الأنموذج لتتمثله وتحتذيه في كلامها وكتابتها. فإن خرج امرؤ عن هٰذا الأنموذج سهل عليه أن يراجع نفسه ليعودَ أو يُعاد إليه.

ولئن كانت الألفاظ تتطور فتشكل بتطورها مظهراً من مظاهر «المتغير» الـذي ربمـا لا يثبت على معنى واحـد، فإن قواعد النحو ينبغي أن تثبت فلا تتغير. هٰذا ما استقـرت عليه النـظرة المعياريّة، حتى في تعـاملهـا مع نصـوص عصر الاحتجاج اللغويّ، إذ هي تحرص على إرساء المعايير النحويّة الثابتة، فإن عارضها نصّ حال دون اطّراد القاعدة حملوه على الضـرورة في مجال الشعر، أو على الشذوذ في مجال النثر، أو أخذوا النص بشيء من التأويل أو الحذف والتقدير، أو ما شاكل ذلك، في سبيل أن تطّرد القاعدة وينْفُذَ المعيار.

وعليه فإن التـركيز على إرسـاء المعـايير والقـواعـد كان همَّهم ووُكْدَهم، أمّا جوانب التطور في هٰذه القواعد فلم يكن ليشغلم كثيراً. وعلى هٰذا ما كان النحوي لينشغل بالتأصيل التاريخيّ لاتجاه العربيّة من الإعـراب إلى البنـاء، أو بالوقوف على المعالم التي تدل على ذلك. وقد أشاروا، مثلاً، إلى ما اصطلحوا عليه باسم لغة «أكلوني البراغيث» لكنهم لم يتطرقوا إلى أنها تمثل أصلاً قديماً تشترك فيه العـربيّة مع اللغـات السـاميّة، وأن «أكلتني البراغيث» ـ وهي التي أصبحت المعيار والقاعدة ـ تَطَوّرٌ.

كما انتهوا إلى أن الحروف «مجهولة الأصول»، مع أن البحث

التاريخي قد يصل في بعضها إلى أصول اسميّة وفعليّة ذات اشتقاق، ولكنها انتهت بفعل التطوّر منذ زمن بعيد إلى أوضاع أدّت إلى اكتناف الغموض أصلَها.

إنّ العربيّة قابلة للتطور وتحوّلِ معايير أي فترة زمنيّة من عمرها إلى معـايير جديدة، شأنها في هٰذا شأنَ أي لغة، وقد اعتراها من التـطور في العصور البائدة قبل العصر الجاهلي ما اعترى اللغات الأخـرىٰ. وتحاول سنن التطور أن تمارس دورها على العربيّة بعد عصر الاحتجاج وخلاله، ولكن النحاة حاولوا لأوضاع خاصة ـ تتمثل في ارتباط العربيّة بالقرآن ـ أن يوحّدوا أنموذجها ويثبتوا معاييرها، وهم محقّون في هٰذا، بل هٰذا ما تلتزم به الأمم عادة حين تتخذ لنفسها معياراً ثابتـاً تَعُـدّه الفصيح الـذي يلتقي عليه الناس على اختلاف لهجاتهم، ولو لفترة زمنيّة محدّدة، ومع ذلك كله تبقى اللغة ظاهرة متطوّرة.

إن هٰذا لا يعني أن قواعد اللغة تظل ثابتة كما ثبّتها النحاة، أي دون تطّور، فلو أردنـا مثـلاً أن نرتب قواعـد باب من أبواب النحو بحسب شيوع قواعده لوجدنا أنه يتخذ ترتيباً معيناً في فترة زمنيّة ما أو بيئة مكانيّة محدّدة، ولكنه في فترة زمانيّة أو بيئة مكانيّة أخرىٰ تتغير منظومته ولا تبقى على حال ثابتة في الغالب. فما كان من المعايير يحتل المرتبة الثانية في شيوعه وكثرة تواتره قد يتغير في فترة أخرى ليحتل المرتبة الأولى، أو قد يحتل المرتبة الثالثة أو العاشرة أو يصبح في عداد المهجور.

ولْأضرب لذلك مثلاً أن التركيب الاسميّ كالتركيب الفعليّ من حيث إن كلّا منهما معيار جائز وقاعدة مطردة، فتقول: قام زيد، وزيد

قام، بَيْد أن التـركيب الاسمى أصبـح أكثر شيوعاً في لغة قوم كَثُرَ احتكاكهم بغير العرب كالأوروبيين مثلا الذين تُؤَدَّىٰ الجملة الخبريّة عندهم من خلال التركيب الاسميّ وحدَه، فإذا قُدِّم الفعل أصبحت الجملة استفهاميّة.

إن قواعد اللغة لَتبدو مستقرّة بفعل التوجيه المعياري، كما تبدو ذرّات الماء هادئه قارّة في إناء زجاجيّ صافٍ، بَيْدَ أن واقع الأمر أن ذرّات المـاء تتحـرك بهدوء نحو الأعلى والأسفل بفعل ما فيها من عوامل التفاعل الداخلي أو ما يطرأ عليها من بواعث خارجيّة.

والمنهـج التـاريخيّ معنيّ بمتـابعة المعايير اللغويّة في حركتها الهادئة أو العنيفة في كل مرحلة زمنيّة، وفي كل بيئة مكانيّة، وتحت تأثير أي عامل، داخليّ أو خارجيّ،مع محاولةٍ لتقديم الخطوط البيانيّة التي تمثل التنقلات التي تعتري مواقع المعايير في الظاهرة اللغويّة، وتفسير ذلك تفسيراً مقنعاً.

ولا شك في أن عملاً كهذا يتجاوز في أهميته مجّرد الرصد والحفظ إلى الأهميّة التـربويّة التعليميّة. فإيراد القواعد على ترتيب معين في زمن ما، لا يعني صلاح ذلك الترتيب تعليمياً لزمن آخر، وهو بالتالي يعطينا القدرة على مراقبة حركة اللغة. ولأضرب لذلك مثـلاً، وهـو: أن أسلوبـاً من نحـو: ﴿فـإمّـا يبلغن عنـدك الكِبَـرَ أحـدُهمـا . . .﴾ أي = إن الشـرطيّة + ما + الفعل المؤكّد، نجد له أمثلة كثيرة في القـرآن الكـريم، ولكننـا لا نجد له أمثلة كثيرة في العصور اللاحقة. وقد كان أسلوب توالي الإضافات قليلاً في عصر الاحتجاج اللغويّ ثم كَثُر كثرة بالغة في زماننا، وذلك لأنه يحل لنا مشكلة تتعلق بالتعبيرات المركبة من نحو: «منظمة هيئة الأمم المتحدة».

٣ـ الدراسات الصرفيّة والمنهج التاريخيّ

تُعَدّ قواعد النحو والصرف من أكثر المعايير اللغويّة ميلاً إلى الثبوت. أمّا المعاني والأساليب البلاغيّة فتتطوّر تطوّراً بيّناً، وكذلك كثير من القوانين الصوتيّة ومخارج الحروف. وعلى هٰذا كان لنا أن نقسم المعايير اللغويّة إلى قسمين كبيرين: المعايير الثابتة أو الأقرب إلى الثبوت، والمتغيرة.

وكما قلنا في الحديث السابق عن قواعد النحو وقابليتها للتطور البطيء ولو في تَبَدُّل المواقع بين هٰذه القواعد مما يشكل في كل عصر منظومة جديدة، لا تبقى فيها القاعدة الأولى على مرّ العصور قاعدة أولى، فإن قواعد الصرف هي الأخرى كذلك.

وسنأخذ في هٰذا المقام أمثلة من الصرف، تبين جوانب من التطور الذي ربما تخضع له معاييره. ومن ذلك أن بعض الصيغ الصرفيّة قد كانت سماعيّة فأصبحت قياسيّة لكثرة الحاجة إليها. ومن ذلك: «المصادر الصناعيّة» وظاهرة «النحت» كانت قليلة ثم كثرت أمثلتها عبر العصور، وهناك أوزان فعليّة كانت قليلة ثم هُجرت هجراناً، نحو: افعنلل كاقعنسس، وافعنلَىٰ كاسلنقىٰ، وافْعَوّل كاجلوّذ (إذا أسرع).

وثمّة صيغ صرفيّة لم يحفظ لنا الاستعمال مجردها الذي يقال إنه الأصل، وحفظ لنا المزيد الذي يُعَدّ الفرع، ومن ذلك طمن التي منها اطمأن، ومَسَىٰ التي منها أمْسىٰ. وثَمّة صيغ لم يعد منها سوى المضارع وقد مثّل القدماء لذلك بـ «يَدَع، ويَذَر» من «ودع، وذر» ومن الصيغ ما اتحدّ فيه معنى المجرّد والمزيد نحو: ثوى، وأثوىٰ بالمكان إذا أقام به، وجذا الشيءُ وأجذىٰ إذا انتصب قائماً، وزها الزرع وأزهى إذا ارتفع، ولا نريد أن نفيض هنا في الحديث عن الأقيسة الفعلية المهجورة في العربيّة

مثـل هفعل وسفعل، وشفعل، فقد أفردنا كتاباً خاصاً لذلك، هو: «معالم دارسة في الصرف: الأقيسة الفعليّة المهجورة».

ونلمح معالم التطوّر في اسم المرّة الذي صاغت له العربيّة من الثلاثي ومن غير الثلاثي. أما اسم الهيئة فلم يشمل التطوّر منه الاّ ما يفي بوزن الثلاثيّ. وأما المصادر الأخرىٰ فقد كانت في الثلاثي مشتّتة غير مستقرة تعتمد على السماع وفي غير الثلاثي قياسيّة مطّردة.

وأما الأوزان الصرفيّة المعروفة للأسماء والأفعال فلا نخالها تثبت في تواترها على منظومة واحدة تجعل ترتيباً ما يمثل عصراً أو مِصْراً ما، فيكون صادقاً في تمثيل كلّ عصر وكل مصر.

إن معالم التطوّر في الصرف العربيّ لا تكاد تُحصىٰ، بل إن معالمه في عصور الاحتجاج اللغويّ لَتَنِدُّ عن الحصر، ولذا كان الدرس الصرفي في حاجة ماسة إلى أن يدرس في ضوء المنهج التاريخيّ بغرض التأصيل التـاريخي، ومـراقبـة مسيرة القـواعد من حيث الشيوع والتواتر على مرّ العصور التي مرّت بها العربيّة.

وقـد عُني الـدرس الصـرفيّ لدى المستشـرقين بدراسات تاريخيّة مهمة، شملت كثيراً من جوانب التطوّر. وجاءت دراساتهم في كثير من الأحيان مصحوبة بالمقارنة بين بنية الكلمة العربية وما يناظرها في اللغات الساميّة الأخرىٰ. وبحثوا ذلك في دراسات جزئية، أو ضمن كتب شاملة تُعْقد الأبواب الأولى فيها للأصوات ثم للكلمات ثم للجمل. وفي مبحث الكلمـات يتحـدّثون عن الصيغ الصرفيّة والأوزان الفعليّة، والاسميّة، والمصادر، والتأنيث والتذكير وما سوى ذلك من مباحث صرفيّة.

الهوامش

(١) باريت ص ١٠.

(٢) باريت ص ١٢.

(٣) باريت ص ١١.

(٤) انظر فوك (١٩٨٢) ص ١٦.

(٥) ماريو باي (أسس علم اللغة) ص ١٦٤.

(٦) انظر عمايرة (المستشرقون ونظرياتهم) ص ١٦-٢٣.

(٧) انظر كمال بشر ٢/٥٣.

(٨) مانفريد أولمان ص ٦٩.

(٩) مانفريد أولمان ص ٧٠.

(١٠) مانفريد أولمان ص ٧٠.

(١١) يقول دوزي في مقدمة معجمه ص ١٤ «ومعاجمهم (يعني المعاجم العربيّة) هذه هي أصول المعاجم التي ظهرت في أوروبا، فهذه الأخيرة لم تَصنّف إلّا بعد بحث في الكتب المصنفة وفحصها وجرد ما فيها من كلمات، بل إن مصنفيها حذوا في تصنيفها حذو مصنفي المعاجم المشارقة ونهجهم في التصنيف حذو النعل بالنعل».

(١٢) انظر عمايرة (المستشرقون ونظرياتهم) ص ١٤.

(١٣) انظر دوزي ١/٢٥. ومما يجدر ذكره أن دوزي لا يريد بمعجمه هذا أن يكون متضمناً لما ورد في المعاجم العربيّة القديمة، ولم يقصد كذلك أن يظهر «بمظهر معجم للغة العربيّة الحديثة» ١/٢٣. ولكن واقع الحال أن معجمه جاء متضمناً لكثير من المواد اللغويّة التي نصّت عليها المعاجم القديمة.

المنهج التاريخي المقارن

المقصود بالمنهج المقارن

يعد المنهج المقارن جزءاً من المنهج التاريخي في دراسة اللغة، وهو يتميّز عن المنهج التاريخيّ في عمومه بأنه يركز على بحث الظاهرة اللغويّة في أكثر من لغة، ويركز بشكل خاص على بحث الظاهرة في اللغات التي تنتمي إلى أصل واحد كاللغات الساميّة أو الحاميّة أو الهنديّة الأوروبيّة. ويكون هدفه من ذلك التأصيل التاريخيّ. كأن يستدل على قِدَم الظاهرة بالتماسها في أخواتها، أو حداثتها بتفرّد اللغة المعنيّة بها من بين أخواتها، بحسب تاريخ حياة تلك اللغة.

وأدلّة المنهج المقارن كأدلة المنهج التاريخي بعامة، ربما لا تكون قاطعة، ولكنها تسمح ببناء تصوّر مُقنع، في كثير من الأحيان عن الأصل التاريخي لكثير من الظواهر.

الفرق بين المنهج المقارن والمنهج التقابلي

يختلف المنهج التاريخي المقارن عن المنهج التقابلي الذي يعتني أيضاً بالموازنة بين اللغات، ولكن الفرق الجوهري بين المنهجين أن الأول يوازن بين اللغات بقصد التأصيل والوقوف على

جوانب التطور، والثاني بقصد التعليم ومعرفة المشكلات التي يعاني منهـا الدارس الذي يرغب في اكتساب لغة جديدة، بأيسر السُّبل، وذلك بمعرفة المشكلات التي يواجهها في اللغة الجديدة حين يدخل رحـابهـا بعـادات لغويّة تحكمها معايير لغته الأولى بنحوها وصرفها وأصـواتها ومعانيها. ولذا فإن المنهج التقابلي قد يعتني عناية بالغة بلغتين ليستـا أصـلاً من أرومـة واحدة، ويحدّد الحاجة إلى العناية بالمقابلة بين لغتين غاياتٌ تعليميّة تخضع لدوافع الإقبال على تعلّم اللغة الجديدة. أما المنهج المقارن فربما لا يلتفت إلى هٰذا الغرض، بل قد يصبح هٰذا الهدف معطّلاً، أو لا قيمة له حين تكون المقابلة أحياناً بين لغتين أو لغات انقرضت أو انقرض بعضها، ولكن البحث التاريخي يتطلب هٰذه الموازنة في سبيل تأصيل الظواهر اللغويّة أو الحضاريّة، ويَعُدّها وثيقة تاريخيّة ضروريّة.

اللغويون القدماء والبحث المقارن.

لم تكن الدراسات المقارنة منهجاً متّبعاً لدى العلماء القدامى، يستوي في ذلك العرب وغيرهم. فإن حصلت المقارنة فهي عرضيّة عابرة كالإشارات المقارنة السريعة التي أشار إليها سيبويه، والفارسي، وابن جني وغيرهم. ولم تكن هٰذه الإشارات من خلال منهج محدد المعالم، واسع النطاق على النحو الذي عرفته الدرسات اللغويّة في القرون الثلاثة الأخيرة.

ولا شك في أن القدماء كانوا يعلمون بوجود صلة وثيقة تجمع العـربيّة بلغـات أخرىٰ كالعبريّة، والكنعانيّة، والسريانيّة؛ فقد أشار الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ) في كتاب العين إلى أن الكنعانيين «كانوا يتكلمون بلغة تضارع العربيّة»[1].

وقد أشار بعض الباحثين[٢]، المحدثين إلى معرفة العلماء العرب القدامى بالصلة بين العربيّة وبعض اللغات الساميّة.ومن هؤلاء القدماء أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ) الذي قارن بين أداة التعريف في العربيّة والسريانيّة، وابن حزم الأندلسيّ (٤٥٦ هـ) الذي أشار إلى الصلة بين العربيّة والسريانيّة والعبريّة والحميريّة، ومن هؤلاء أيضاً أبو حيان الأندلسيّ وله كتاب في الحبشيّة اسمه «جلاء الغَبَش عن لسان الحبش».

إن هٰذه الإشـارات العـابـرة من القدماء لا تعني أنهم ساروا على المنهـج المقـارن، فقد جاء هٰذا المنهج وليد خطى وئيدة حفزت إليها دوافعُ معقدة، وقد كان تطبيقه على العربيّة ذا سمة تختلف عن الإشارات السريعة التي قد نعثر عليها مبثوثة في كتب التراث اللغويّ العربيّ.

الاستشراق ودوافع البحث اللغويّ المقارن

لعـلّ الدراسات المقارنة من أظهر ما يميّز الدراسات الاستشراقية، وقـد صاحب دراسـاتهم المقارنة للغة العربيّة واللغات الساميّة دراساتٌ مقارنة على صعيد اللغات الهنديّة الأوروبيّة وغيرها.

وفيما يلي نلقي الضوء على أظهر أسباب اهتمامهم بالمقارنة بين اللغات.

أولاً: لغة «الكتاب المقدس» والبحث عن اللغة الأولى للبشر.

كثيراً ما ثارت الرغبة في نفوس الأوروبيين للتأكد من صحة ما جاء في «الكتاب المقدس» من أن العبريّة أصل اللغات، فهمّ بعضهم بإجراء بحوث لإثبات هٰذا الادّعاء، خرجوا منها في البدايّة، بنتيجة خلاصة مفادها

أن اللغة العبريّة أصل اللغات، وعنها تفرعت اللاتينيّة واليونانيّة . . .

ثمّ سار البحث العلمي نحو هدف آخر، فقد اتجه الباحثون إلى غاية أخرى، وهي بحث الصلة بين اللغات من خلال ما يسمح به واقعها الموثّق، غاضّين النظر عن أصلها الأول، وعن اللغة الأولى، فقد عدّوا ذلك خارجاً عن إطار البحث العلمي. وقد تمخّض هذا عن تقسيم اللغات إلى أسر لغويّة متباينة، كأسرة اللغات الهندية الأوروبيّة، وأسرة اللغات الساميّة، والحاميّة، والأورال، والصينيّة، واليابانية، والكورية، والبانتو. . .

ثانياً: الكشوف الجغرافية والاغتراب عن الأوطان.

ومما أذكى الرغبة في المقارنة بين اللغات وجود كثير من الأوروبيين خارج أوطانهم منذ زمن بعيد، ابتداء من القرنين الخامس عشر والسادس عشر - إذ أثارت الكشوف الجغرافية فضول العلماء إلى المقارنة بين اللغات - ووصولاً إلى عصر الاستعمار الأوروبي، حيث تطلّب الموقف تعلم لغات البلدان المستعمَرة. وهذا ما حدث للسير وليم جونز أثناء إقامته في البنغال. فقد أعلن سنة ١٧٨٦م ما لاحظه من صلة قرابةٍ بين السنسكريتيّة واليونانيّة واللاتينيّة.

ويقال إنّ أوّل من تنبه إلى أن ثمّة قرابة بين اللغات الأوروبيّة واللغة السنسكريتيّة هو أحد الإيطاليين واسمه «ساستي» ولكن ملاحظاته لم تجد الأذن الصاغية التي وجدتها ملاحظات «وليم جونز»(٣).

وبعد سنواتٍ توالت الدراسات المقارنة بين اللغات، فقـد نشر فرانتس بوب سنـة ١٨١٦م كتابـاً تحدّث فيـه عن نظام التصـريف في السنسكريتيّة مقارناً ذلك باليونانيّة، واللاتينيّة، والفارسيّة، والجيرمانيّة، وكتاباً آخر سنة ١٨٣٣م تحدّث فيه عن النحـو المقارن للسنسكـريتيّة، والسنديّة، والأرمنيّة، واليونـانيّة، والـلاتينيّة، والسـلافيّة، والقـوطيّة، والألمانيّة.

ثالثاً: حركة استقلال العلوم عن الفلسفة.

ومما أذكى الـدراسـات المقـارنـة بين اللغـات أن واكبت تلك الدراسات موجة استقلال لكثير من العلوم الطبيعيّة والإنسانية. وقد نادى علماء الفيزيـاء والكيمياء والـطب... وغيرهم بـاستقلال علومهم عن الفلسفة، وأخذوا يطلقون كلمة «علم» Science على كل علم من هذه العلوم بعد أن اكتشفوا قوانينه المطردة المتميّزة.

وهكذا فعل علماء اللغة، فقد راحوا يبحثون عن القوانين المطّردة بالنسبة لكل لغة على حدة، ثم لكل مجموعة متجانسة من اللغات، ويبحثون عن القوانين المشتركة بين اللغات بوجه عام General Linguistics. وقد شرع بعض اللغويين في الموازنة بين ما توصّلوا إليه من حقـائق عن أصل اللغات وفروعها بما توصّل إليه نظراؤهم في مجال العلوم التطبيقيّة على نحو ما فعل F. Von Schlegel في كتابه عن اللغة والحكمة لدى الهنود سنة ١٨٠٨م.

Über die Sprache und Weisheit der Inder.

فقد وازن فيه نتائجه عن نحو اللغة السنسكريتيّة،الذي قورن بنحو

اللغات الأخرى،بتلك النتائج التي توصّل إليها علم التشريح المقارن في مجال التاريخ الطبيعي.

ومما شاع بين علماء النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من أمثال بول وبروجمان، وليسكن، أن قوانين الصوتيات التي تطرأ على اللغات وتحكم تطورها هي من جنس القوانين التي تحكم عالَم الطبيعة.

رابعاً: النظرة القوميّة والبحث عن عوامل التفوق العرْقي في أوروبا.

من المعلوم أن أوروبا في عصر القوميات قد اهتمت اهتماماً كبيراً بعلم السلالات البشريّة، ومحاولة تأصيلها، والانتصار لعرق على عرق، بإثبات تفوّقه لغويّاً وحضاريّاً، فراحوا يجمعون لغات الشعوب المتباينة، ويقارنون فيما بينها على نحو ما فعل إدوارد سابير (١٨٨٤ - ١٩٣٩) E. Sapir في دراسة اللغات الهنديّة الأوروبيّة بتوجيه من عالم السلالات البشريّة بواس(٤) F. Boas. وكما فعل أوليفر باسلين الذي كان ينتصر لقوميته الفرنسيّة - في حرب الأعوام المائة - بالسخرية من اللغة الإنجليزيّة إذا ما قورنت باللغة الفرنسيّة في نطقها(٥).

خامساً: علم الآثار والبحث عن تاريخ الحضارات القديمة.

كان من ثمار الحركة العلميّة الحديثة تلك الجهود التي وجهها العلماء نحو الآثار، والتنقيب عنها، حتى لقد أصبح هذا المضمار علماً قائماً بذاته، وثيق الصلة بتاريخ الحضارات واللغات وكثير من العلوم. وقد أخذ علماء اللغة يتابعون ما تسفر عنه الكشوف الأثريّة في العالم القديم، وبخاصة في مواطن اللغات الساميّة، فيما بين النهرين،

والشام، **وشمال أفريقيا، وفي** الجزيرة العربيّة، والحبشة، **فتكشّفت لهم** الألواح **الفخاريّة، وشواهد القبور، والنقوش العديدة، فعكفوا** على دراسة **ذلك كلّه.**

وكان للمستشرقين في هذا شأن يذكر. فقد **أماطوا اللثام عن** كثير من **النقوش المكتشفة،** وساهموا في الكشف عنها، **بعد أن ظلّت** مجهولة **قروناً طويلة، فعُرفت** الأكادية مع منتصف **القرن التاسع عشر، واكتُشفت الأوغاريتيّة في** أواخر العقد الثالث من **القرن العشرين، واهتدى الباحثون** إلى كثير من النقوش العربيّة الشماليّة، **والجنوبيّة،** والعبريّة، والآراميّة، والفينيقيّة، والكنعانيّة، وغيرها.

وممن أتيحت لهم فرصة المساهمة في حلّ رموز **اللغات الساميّة المكتشفان دوتي** Ch. Doughty وهوبير Ch. Huber **فقد أسهما في اكتشاف النقوش** الثموديّة والصفويّة واللحيانيّة. وممن **أسهموا في** اكتشاف هذه النقوش ودراستها أويتنق J. Euting**، وموللر** D.H. Müller ووينت F.V. Winnett، وجرمه H. Grimme **وليتمان** Enno Littmann. وقد أسهم هذا الأخير في **الكشف عن كثير من النقوش** الليديّة، والتدمريّة، والنبطيّة، والآراميّة، **والعبريّة، والعربيّة،** والسبئيّة.

الأهداف المشتركة بين المستشرقين ونظرائهم الغربيين في مجال البحث المقارن.

لقد جاءت جهود المستشرقين في **ميدان اللغات الساميّة حلقة في** سلسلة البحث **عن** الحضارات القديمة، **واللغات القديمة. وقد اجتهد**

نظراء المستشرقين من الباحثين في اللغات الهنديّة الأوروبيّة في البحث عن الوثائق القديمة الأثريّة للغات اليونانية، والرومانية، واللاتينيّة، رغبة منهم في الوقوف على نصوص تمثّل حِقَباً تاريخية متنوّعة تمكّنهم من المقارنة المتعمقة التي تستهدف لغويّاً كشف العلاقة بين لغة وأخرى، ومعرفة ما إن كانت اللغات الإنسانية ترجع إلى أصل واحد، وهل تربطها قواعد عامة؟ وكيف تطورت وانفصلت؟ وكيف يمكن أن يُفَسَّر ذلك التطور؟ وما موقع اللغات الأوروبيّة - وبالتالي الأعراق الأوروبيّة - من اللغات الأخرى، والأجناس الأخرى؟.

ومما يؤكد وحدة الهدف والمنهج بين المستشرقين ونظرائهم من الباحثين الغربيين، في مجال الدراسات اللغوية التاريخيّة، ما كان يجري من صلات بحثيّة تستهدف المقارنة بين اللغات الساميّة والأوروبيّة، على نحو ما فعل H. Müller في كتابه: اللغات الساميّة والهنديّة الجرمانيّة.

Semetisch und Indogermanisch, Copenhagen 1907.

ولمولّلر أيضاً معجم يقارن فيه بين المفردات الساميّة والهنديّة الجرمانيّة:

Vergleichendes indogermanisch - semetisches Wörterbuch, Göttingen 1911.

ويُشار في هذا المقام من المقارنات إلى كتاب كوني A. Cuny:

Etudes Prégrammaticales sur le domaine des Langues indo-européennes et chamito-semetiques, Paris 1924.

وليس غريباً أن يهتم الأوروبيون باللغات الساميّة التي بها تنزّلت كتبهم المقدسة كالعبريّة، والآراميّة الفلسطينيّة وقد تبيّن في الحديث عن الدوافع اللاهوتية، في البحث الذي كتبته بعنوان «المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربيّة»، الأمور التي جعلتهم يهتمون بالعربيّة بوصفها اللغة الساميّة الحيّة من بين أخواتها. وبها يمكن أن تُحلّ كثير من المشكلات النصيّة المتعلقة بكتبهم المقدسة. وقد انفردت في هذا المضمار دراسات خاصة بالمقابلة بين العربيّة، والعبريّة التوراتية(٦).

بيد أن بعض هذه المقارنات كان مفرطاً في طموحه، كتلك المحاولات التي توسل بها أصحابها إلى إعادة صياغة اللغة الساميّة الأم، أو إعادة صياغة اللغة الهنديّة الأوروبيّة الأم، على غرار ما فعل شليشر حين ألّف قصّة خرافيّة قصيرة متخيّلاً أنها باللغة الهنديّة الأوروبيّة الأم، وقد أسماها «النّعاج والحصان».

أسس المنهج المقارن في تقسيم الأسر اللغويّة.

لعلّ أظهر ما في المنهج التاريخي الجانب المقارن فيه، ويسعى إلى مقارنة اللغات ليكشف عن أصولها، والأُسر اللغويّة التي تنتمي إليها. فما تشابه منها في بُناه الصرفيّة، وتراكيبه النحويّة، واطّرد تبادل قوانينه الصوتيّة عُدّ من أسرة واحدة، وإلّا فهو خارج عن هذه الأسرة.

ولا يُعَدّ التقاء اللغات في كثير من المفردات دليلاً قاطعاً على أنها تنتمي إلى أصل واحد. فاللغات ـ وبخاصة في مجال المفردات ـ قد تُكثر من الاستعارة، ولكنها تبقى مشدودة الجذور إلى أُسْرتها. ومن الأمثلة

الدّالة على ذلك بقاء اللغة الفارسيّة في أسرة اللغات الهنديّة الأوروبيّة رغم أنّ حوالي نصف ألفاظها من أصل عربيّ، وكذلك التركيّة. وتظل اللغة الإنجليزيّة جرمانيّة الأصل، مع أن جلّ مفرداتها ينتمي إلى اليونانيّة، واللاتينيّة.

وحال المالطيّة في ذلك كالإنجليزيّة، إذ لم يُخرج كثرة الدخيل في المالطية هٰذه اللغةَ عن أسرة اللغات الساميّة، بل لم ينأ بها عن نطاق الأرومة العربيّة.

عقبات أمام منهج البحث التاريخي المقارن للغات الساميّة:

انتهى كثير من الباحثين في اللغات الساميّة ومقارنتها إلى نتائج طيّبة. بيد أن ثمّة صعوبات تظل قائمة في وجه الباحثين الذين يسيرون على هذا المنهج. ولعل من أظهر هذه العقبات ما يأتي:

١ ـ مشكلات الاعتماد على الكتابة دون النطق في وصف اللغات.

وقد واجه العلماء الذين ساروا على هذا المنهج عقبة كبيرة، وهي أنّهم يتعاملون مع نصوص قديمة في شكلها المكتوب، لا في صورتها المنطوقة، وقد زاد من صعوبة هذه العقبة أنّ كثيراً من اللغات القديمة قد اندثرت من واقع الاستعمال اللغوي، ولذا كان من الصعب أن نعرف كيف كان ينطق العرب الجنوبيون كلمة مكتوبة بالحروف الصامتة، نحو: كتب، فهل هي:كَتَبَ، أم كُتِبَ، أم كِتَبَ، أم كَتُبَ... ولم تكن المشكلات التي واجهت الدارسين لبقيّة اللغات كالعبريّة والآراميّة القديمتين بأقلَ من هٰذه اللغة. ولذا كان العلماء يستعينون في حلّ هٰذه المشكلة بالتركيز على دراسة هٰذه اللغات في ضوء معرفتهم

بالعربيّة ولهجاتها، بوصفها حيّة منطوقة، فضلاً على قدمها. ولذا كانت العربيّة أساساً لا يُستغنى عنه في مقارنة اللغات الساميّة، وكان إتقانها أو الإلمام بها لا يُستغنى عنه في قراءة النصوص الساميّة القديمة. ويؤكد ذلك أنك لا تكاد تجد كتاباً يبحث في مشكلات أيّ من اللغات الساميّة إلّا وقد أفاد من العربيّة بمقدار(٧).

ولا يعني ذلك أن الأمر يصبح ميسوراً تماماً بمعرفة العربيّة، إذ العربية نفسها لم تخل من مشكلات تتعلّق بالكتابة، وطريقة النّبر، وتباين اللهجات، وتطوّر الدلالة، والأصوات. فالكتابة العربيّة في مراحلها الأولى قبل الإعجام لم تكن دقيقة، وليس في كتبنا القديمة قواعد محدّدة للنّبر، كما لم يصل إلينا وصف دقيق للفوارق اللهجيّة، فالحدود الفاصلة بين لهجة وأخرى، والعلامات المميّزة لكل لهجة، ما تزال موضع اجتهاد وتباين في الآراء.

وثمّة صعوبة كبيرة في البتّ في أمر الحقيقة والمجاز بالنسبة لمعاني الألفاظ. وقد تباين أحياناً وصفُ الأصوات. فالقاف الفصيحة تنطق في زماننا مهموسة من أقصى الحلق، ويُجمع القدامى على وصفها بالجهر.

٢ ـ انقراض اللغة الساميّة الأم، وعدم الوقوف على تاريخ دقيق يُمثل الفترة الزمنيّة التي عاشت فيها هذه اللغة قبل أن تتفرّع عنها بناتها. ولذا فقد تطرّق الشكّ في أذهان بعض الباحثين إلى وجود هذه اللغة أصلاً.

٣ ـ انقراض كثير من اللغات السّاميّة، ولعلّ بعضها لم يُكْتَشَفَ بَعْدُ، وحتى اللغات التي اكتشفت منها مؤخرا كالأوغاريتيّة (اكتُشفت سنة

١٩٢٨)، والأكاديّة (اكتُشفت حوالي منتصف القرن التاسع عشر) فإن الدراسات التي أُجريت حولها ما تزال في حاجة إلى مزيد من التمحيص والإضافة.

٤ ـ وحتى اللغـات الساميّة المعروفة كالعربيّة مثلاً، فإن كثيراً من حِقَبها التاريخيّة ما تزال مجهولة. فلم تصل أيدي الباحثين في العربيّة إلّا إلى فترات زمنيّة حديثة نسبيّاً، كنقش النمارة الذي يعود إلى سنة **٣٢٨**م. وكثيراً ما كانت النصوص المكتشفة قليلة كتلك النتف التي وجدت متفرّقة على الحجارة من بقايا القبائل العربيّة البائـدة كالثمـوديّة،واللحيـانيّة، **والصفويّة، وكتلك النصوص القليلة التي وصلت إلينا من بقايا الآراميّة القديمة.**

٥ ـ ثمـة صعـوبـة في الوصول إلى ترتيب يبيّن تدّرج هٰذه اللغات زمنيا في انفصالها عن اللغة الأم، لنعرف بالتالي أيُّها أقدم، أو أكثر تمثيلاً للأصل، فـإن يكن معلوماً أن الآراميّـة أصل لكـل من المندعيّـة (لغة المجوس) والسريانية (لغة النصارى) فإننا لا نعلم:ألعربيّة أقدم اللغات الساميّة، أم الأكاديّة؛أم العربيّة الجنوبيّة (التي منها الجعزيّة أو الحبشيّة).

وللعلماء في هذا اجتهادات متباينة، نشير إليها فيما يأتي:

هنالك آراء منطلقها دينيّ، ويمثّلها ما يذهب إليه بعضهم من أن العبريّة هي اللغة الأولى للبشر، لزعمهم أنها كانت اللغة الأولى لأبي البشر جميعاً. وهي لغة أهل الجنة عند هؤلاء. فدليل هؤلاء العلماء كما هو واضح ـ ليس لغويّاً. وعلينا أن نتذكر هنا أن من العلماء المسلمين من قال إن لغة أبي البشر ـ آدم عليه السلام ـ كانت العربيّة. والله أعلم.

وثمّة آراء منطلقها أقدم ما وصل إلينا من نصوص. وعلى هذا فإن

اللغات السامية الشرقية: الأكادية وفروعها: البابليّة والآشوريّة، وأقسامهما،تمثل أقدم أشكال اللغات السامية، بوصفها أقدم النصوص الساميّة التي استطاع الباحثون التوصل إليها.وهي تعود إلى ما يقرب من (٢٤٠٠ قبل الميلاد).

ويتضح من هذا أن القائلين بهذا الرأي ينطلقون في الحكم على تفاوت اللغات قِدماً وحداثة، من خلال أقدم ما وصل إلينا من نصوص مكتوبة. ويوهن من هذا الرأي أمران:

أحدهما: أن اللغة منطوقة قبل أن تكون مكتوبة. فكثير من اللغات القديمة ظلّت إلى أجل قريب منطوقة، ولم تُتح لها فرصة الكتابة. ولكن هذا لا يعني حداثة هذه اللغات، ولا يجوز لنا أن نعتبر هذه اللغات قد بدأت ببداية كتابتها.

ثانيهما: أن الكشوف الأثريّة لم تنتهِ بَعْدُ، وهذا يعني أن أحكامنا من هذا المنطلق لن تكتسب صفة الثبوت. فقبل عام ١٩٢٨ كانت معالجة العلماء للغات الساميّة في غياب ما أسفرت عنه الكشوف الأثريّة إثْرَ رفع النقاب عن الأُوغاريتيّة. وقبل مائة عام تقريباً كان يشيع بيننا أن الشعر الجاهلي يمثل أقدم ما وصل إلينا من العربيّة، ثم أسفرت الكشوف الأثريّة عن أنماط من العربيّة التي تباين ما أِلْفْناه من الشعر الجاهلي، ممثلة في العربيّة النبطيّة، والنقوش اللحيانيّة، والثموديّة، والصفويّة. وهي قبائلُ عربيّة شماليّة تمازِج لهجاتِها عناصرُ عربيّة جنوبيّة وآراميّة.

٦ ـ **وقد اعترضتْ العلماءَ عوارضُ فيما يتعلّق بتقسيم حياة اللغة الواحدة** إلى مراحل. فقد قرّروا أن الأكادية انقسمت إلى الآشوريّة والبابليّة. وكان ذلك في حوالي (٢٠٠٠ قبل الميلاد).وانقسم كل من هذين الفرعين إلى مراحل مختلفة. فالبابلية القديمة، وتمتد من (٢٠٠٠ ـ

١٦٠٠) قبل الميلاد، والبابلية المتوسطة من (١٥٠٠ - ١١٠٠ ق.م)، والبـابليّة الحـديثة من (١٠٠٠ - ٧٠٠ ق.م)، والبـابلية المتـأخرة من ٦٠٠ق.م إلى أن غابت هذه اللغة تدريجيـاً عن الوجـود وانقسمت الآشورية إلى عصور ثلاثة: العصر الأول ويمتد من القرن التاسع عشر أو الثامن عشر قبل الميلاد، والآشورية المتوسطة وتقع فيهما بين القرنين: السادس عشر والحادي عشر قبل الميلاد، والآشوريّة الحديثة وتمتد فيما بين القرن العاشر قبل الميلاد والقـرن السابع قبل الميلاد.

ولكن هذا التقسيم - على ما يبدو عليه من بعض جوانب الدقّة - لم يكن موضع اتفاق تامّ بين العلماء، ولم يخل من مشكلات التداخل بين هذه المراحل، ومشكلات أخرى تتعلق بالصعيد الذي استخدمت فيه اللغة الأكاديّة. إذ من المألوف أن يختلف الشعر عن النثر، والعاميّ عن الفصيح، ولغة الفلاحين عن لغة التجار، إلى غير ذلك مما لا يتسع له المقام (٨).

ولا يتسع المقام كذلك إلى الحديث عن المراحل والأقسام التي تفرّعت إليها اللغات الساميّة الأخرى، كالساميّات الغربيّـة الشماليـة، ومنها الكنعانيّة، والعبريّـة والفينيقيّة، والآراميّـة، والساميـات الغربيّـة الجنوبيّة، التي منها العربيّة الفصحى(الشماليّة)، والعربيّة الجنوبيّـة، والحبشيّة. وما انقسمت إليه كل لغة من هذه اللغات (٩).

وقد حدث هذا على صعيد العربيّة بين ما هو خاص بالشعر دون النثر، وبالعاميّ والفصيح، وغيـر ذلك. وللمستشـرقين الذين اهتمـوا بتاريخ العربيّة حديث طويل عن تقسيمها إلى مراحل تاريخيّة(١٠).

٧ - ومن الصعوبات التي تعترض الباحثين معـرفةُ الأصيـل من

الدخيل في إطار اللغات التي تنتمي إلى أسرة واحدة ومما يزيد الأمر صعوبة أن ثمة ظواهر لغويّة مشتركة تُعَدّ إرْثاً مشتركاً بين هذه اللغات، ورثته عن الأصل الذي تفرّعت عنه. وهو أصل توارى في ظلمات الزمان الموغل، ولم تعُد منه سوى ملامح الشّبه التي تنتقل من الآباء إلى الأبناء، لتدل على أن هؤلاء ينحدرون من سلالة واحدة. ومن المعلوم أن لكل لغة جوانب ذاتيّة في التطور والنمو، وثمّة جوانب أخرى تعتمد فيها اللغة على سواها من اللغات، فتستعير منها، أو تتأثر بها. وهنا تكمن الصعوبة في معرفة ما هو ذاتي، وما هو دخيل. وبخاصة في مجال اللغات المتقاربة أصلاً.

ولعلّ في هذا ما يفسِّر لنا صعوبة التعرّف على الكلمات التي تبادلتها اللغات الساميّة فيما بينها. فإن هذه اللغات تشترك أصلاً في كثير من طرائق أَبنيتها الصرفيّة والنحويّة وحتى في أساليبها الدلاليّة والبلاغيّة، فأفعال من نحو: كَتَب، وقَرَأ، ودَرَس، وأَمَر. . . تجدها مشتركة بين كثير من هذه اللغات. فهي إمّا كلمات موروثة من اللغة الأم، وإمّا مُستعارة من إحدى هذه اللغات إلى الأخرى، وقد انسجمت مع متطلبات اللغة الأخرى (الجديدة) لأن الشروط اللغويّة الجديدة لحياتها لا تختلف،أو لا تكاد تختلف عن الشروط القديمة التي كانت تحياها أصلاً.

ولا يستطيع الباحث أن يُلزم أحداً بحُجَج لغويّة مَحْضَة يسلّم عن طريقها بأنّ كثيراً من هذه الكلمات تنتمي أصلاً إلى هذه اللغة، ثمّ انتقلت منها إلى سواها. ولذا كنت ترى الباحثين يلتمسون لذلك أدلّة وقرائن من خارج اللغة كالمستوى الحضاري للأمة أو سوى ذلك من أدلّة ظنيّة تحتمل الشكّ.

وعلى ذلك صحّ أن يتطرّق الشك إلى صحّة ما ذهب إليه كثير من المشتشـرقين الذين يذهبون إلى أنّ كلمات من نحو: سَكَنٌ، ولَبنَة، وطِيْن،وغيرهـا، ليستعربيّة أصـلاً، ريَعُدُّون ألفاظاً من نحو: وَبَر، وجمل، وخيمة. . عربيّة صميمة. وحجَّتهم في ذلك أن ألفاظاً كهذه من صميم مستلزمـات البداوة، والعرب أمّة بدويّة، أما تلك الألفاظ فألفاظ حضارية. والآرميون أمّة متمدينة، وهي أعرق حضارة وأبعد عن البـداوة من العرب، وتلك ألفاظ من مستلزمات الحضارة، فهي إذن مأخوذة من الآراميّة، أو عن طريق الآراميّة من لغات أخرى[11].

ومن التنـاقضـات التي وقـع فيهـا بعض المستشـرقين [12] وهم يؤصّلون الألفاظ الساميّة بردها إلى هذه اللغة أو تلك،محاكمتها من خلال ظاهرة الاشتقاق. فإذا جاءت لفظة في لغة ساميّة ما جامدة، وفي أخرى

مشتقـة، ذهبوا إلى أن هـذه اللفظة تنتمي إلى اللغـة التي استعملتهـا مشتقة [13] . وهذا المبدأ صالح للاستئناس به ولكنّه ينطوي على محاذير. فإن ألفاظاً جامدة كثيرة وردت في العربيّة مثلاً، نحو رَجُل، وعَقْرب، وثَعْلب. . . ولكن جمودها لا ينفي أصالتها.

وقد نجد ألفاظاً عدّها المستشرقون أنفسهم مستعارة، استقدمتها العربيّة من غيـرها، ولكن واقعهـا في الاستعمال العـربي اقتصر على صورتها الاشتقاقيّة دون الأصل الذي يُفترض أن تكون قد أُخذت منه. ومن ذلـك أن كلمة «سـوس» סוס العبريّـة ومعناهـا حصان، يعـدها جزينيوس [14] كلمة عبريّـة، وقد ورد استعمـالها في كثيـر من اللغات السامية كالسريانية ܣܘܣܝܐ والآشوريّة sisu أمّا في العربيّة فهو يقول إنها

كلمة دخيلة. ولم تستخدم بمعنى الحصان، وإنما بمعنى اشتقاقي يرافق الدلالة على الحصان، نحو ساس، يسوس، وسياسة... فهل نَعُدّ ـ بناء على ما يذهب إليه فرينكل ـ هذه المادة الاشتقاقية عربيّة، فنخالف بذلك ما ذهب إليه جزينيوس الذي عدّها دخيلة.

لا يُستبعد أن تكون «حصان» ذات دلالة مجازية، ثم غلب استعمالها على الكلمة المنقرضة المشتقة من ساس فحلت محلها. ولا يبعد أن تكون كلمة حصان مأخوذة من التحصّن والامتناع، الذي أخذت منه كلمة الحِصْن بمفهومها العسكري.

لا يستطيع الباحث أن يطمئن إلى الاعتماد على ظاهرة الاشتقاق في الحكم على أصل الكلمات. فقد رأينا كيف أن العربيّة في أيامنا هذه تستقدم كلمات لا نشكّ في أنّها دخيلة، ولكنها استُخدمت استخداماً اشتقاقيّاً على نطاق واسع (نحو:تلفز،وتلفن...) إلى جانب ألفاظٍ عربيّة خالصة، ولكنّها مع ذلك ظلت جامدة.

ومن جانب آخر: ما الذي يمنع أن تكون.كلمات من نحو: زكا، وتاب، ورحمٰن، وقَيُّوم، ومدينة، وسكينة، وفرقان... عربيّة أصلاً؟ أمّا بيرجشتريسر فيزعم أن هذه الكلمات ليست عربيّة، ويقول: «إن لفظها يدل على استحالة كونها عربيّة أصليّة»(١٥). وقد التمس لها أصلاً في الآراميّة أو غيرها، وأخذ يوازن بين هذه الألفاظ في اللغتين: العربيّة والآراميّة.

ومن ذلك ما قاله في «تاب» مثلاً:

«وأمّا تاب فمادتها الأصليّة (ثوب)؛ فهي في العبريّة šub لأن الثاء

السامية صارت شيناً في العبريّة، ومعناها الأصلي: الرجوع، ونجد «ثاب» بالثاء في هذا المعنى نفسه في العربيّة. وأصبحت الثاء تاء في الآراميّة، فنستدل على وجود التاء في «تاب» بدل الثاء، على كونها أُخذت من الآراميّة» (١٦).

وقال في «سَكِينة»: «وسَكِينة، وهي: Škinṯa أصلها مصدر، أي: السكون والنزول في محل، فخُصّت عند اليهود بسكون الحضرة الإلهيّة، وتنزّلها في العالم وفي نفس الإنسان» (١٧).

هذه بعض النماذج مما قدّمه من كلمات كثيرة ردّها إلى أصول غير عربيّة، ونحسب أنّ الأمر أعقد بكثير من حدود هذه الاجتهادات، وبخاصة بين لغات تنتمي إلى أصل واحد، وبيئة واحدة، وفترات زمانية متداخلة، فضلاً على أن المصادر المتوفرة لا تسعف تاريخياً في الوصول إلى مثل هذه الأحكام.

٨ ـ ثمّة عقبات واجهت العلماء في معرفة العلاقة بين الأُسر اللغويّة. فهم يقسمون اللغات إلى أُسر:

كأسرة اللغات الساميّة.
وأسرة اللغات الحاميّة.
وأسرة اللغات الهندو أوروبيّة.
وأسرة الأورال.
وأسرة البانتو.. وغيرها.

بَيْدَ أنّ ثمّة ملامح شَبَهٍ تتراءىٰ بين هذه المجموعات بما يُغري العلماء بالبحث عن علاقات بينها. فهل تشير هذه العلاقات إلى صلات لغويّة حقيقيّة يمكن أن يُطمأن إليها في إعادة هذه اللغات أو

بعضها إلى أصل لغوي واحد، أو هو مجرد الشبه الذي يمكن أن يترتب على التقاء البشر في التفكير والمشاعر بوصفها ظواهر إنسانية مشتركة؟

ومن اجتهادات العلماء في هذه السبيل ما ذهب إليه «روسلر» Rössler من بحث للعلاقة بين اللغات الساميّة واللغات الحاميّة. وقد ردّ فيه اللغات الساميّة إلى أصول حاميّة. وجعل ذلك في خمس مراحل (١٨):

المرحلة الأولى وتعود - في تقديره إلى ما يقرب من ١٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وهي مرحلة حاميّة خالصة. وتمثّل البربريّةأنموذجاً ينتمي إلى تلك المرحلة.

والمرحلة الثانية ، وتمثلها اللغة البيضاويّة، وهي من اللغات الحاميّة. وهي أقرب إلى الأكاديّة منها إلى البربريّة.

والمرحلة الثالثة، وتمثلها الأكادية، وهي ساميّة، ويَعُدُّها أقدم صورة تفترق فيها لغة ساميّة عن الأرومَة الحاميّة.

وهو يرى أن المهريّة تمثل مرحلة متوسطة بين الأكادية والعربيّة.

ثمّ تأتي العربيّة لتمثّل صورة ساميّة خالصة هي أحدث صورة لتطوّر اللغات الساميّة في نظره.

إن محاولات كهذه التي قام بها «روسلر» في البحث عن المراحل التي مرّت بها الأسر اللغويّة مفيدة ولا شك، ولكنّها تبقى غير قاطعة في الوصول إلى نتائج يُطْمأن إليها، فضلاً على أنها تبني أحكامها على ما هو ظاهر من تاريخِ هذه اللغات. فهو يحكم على العربيّة من خلال مقارَنتها بالأكاديّة مثلا. مع أننا لا نعلم كيف كانت العربيّة في

ذلك الزمان الذي تمثله النصوص الأكاديّة المكتشفة قبل أقدم نص عربي وصل إلينا بقرون عديدة. ثم على أي نحو كانت البربريّة قبل ١٠,٠٠٠ سنة؟ إنّها لمجازفة كبيرة أن نخرج بتصورات ثابتة من خلال هذه الأزمان المتطاولة.

وينبغي أن نكون حَذرين، حتى في الحديث عن تقسيم اللغات من خلال تاريخها القريب. فإذا كانت اللغات الساميّة والحاميّة تتشابه في بعض الأصول الاشتقاقيّة الصرفيّة فإن هذا لا ينبغي - من حيث المبدأ - أن يُسرع بنا إلى الحكم عليها بأنّها تنتمي إلى أصل لغوي واحد. وذلك لأن كثيراً من اللغات تتعرض إلى تغيرات جوهريّة في تاريخها. «فمثلاً تعتبر الإنجليزيّة الحديثة الجامدة من ناحية التركيب النحوي منفصلة عن السنسكريتيّة. ولكن التقسيم الأُسريّ يعتبر الإنجليزيّة الحديثة والإنجلوساكسونيّة أسرة واحدة، كذلك الهندوستانية والسنسكريتيّة، هذا وكثيراً ما نادى بعض اللغويين في الوقت الحاضر بأن لغة الكلام الفرنسيّة الحديثة تشبه إلى حدّ كبير لغة الهنود الحُمر المركبة.. كما نادىُ هؤلاء أيضاً بأن اللغة الفرنسيّة ترتبط من ناحية أخرىُ بلغات البانتو الأفريقيّة من حيث تقسيمها للإضافات التي تسبق الكلمات»[١٩].

أهميّة المنهج المقارن في الدراسات اللغويّة العربيّة

لا تُقلِّل هذه المشكلات من أهميّة المنهج المقارن، بل إن فيها وفي غيرها لَما يؤكّد حاجة العربيّة إلى اللغات الساميّة. فلا شك أن قواعد هذا المنهج مفيدة بقدر كبير في تحقيق كثير من المسائل العلميّة التي تعترض سبيل المعرفة العميقة للغة العربيّة، وأيٍّ من شقيقاتها.

إنّ في وسعنا من خلال المنهج المقارن للعربيّة باللغات الساميّة أن نحقّق بعض المسائل التي ربما لم يصل البحث القديم فيها إلى نتائج حاسمة، ولا شكّ أنّ النتائج التي يمكن أن يُتوصّل إليها مفيدة للاستئناس بها في ترجيح الآراء السابقة أو الوصول إلى وجهات نظر جديدة، وربما إلى حقائق يقينيّة في البحث اللغوي. وسوف نتحدث فيما يأتي عن أهميّة هٰذا المنهج على صعيد المجالات اللغوية الآتية:

أولاً: ـ الدراسات المعجميّة.

١ ـ المنهج المقارن ومَيْز اللفظ الأصيل من اللفظ الدخيل:

فالمنهج المقارن يهتم برصد ما خالط العربيّة من جرّاء احتكاكها بلغات أخرى كالفارسيّة، والسريانيّة، والإغريقيّة، والتركيّة واللغات الأوروبيّة المعاصرة وغيرها، وهو لذلك يهتم بوضع المعايير اللازمة لذلك، من صوتيّة وصرفيّة ودلاليّة.

ولا شك أنّنا في حاجة إلى معاجم لغويّة تكمّل جهود اللغويين المعياريين، فتستدرك عليهم أموراً منها:

أ ـ المَيْز بين العربي الأصيل، والمعرّب أو الدخيل الذي وفد إلى العربيّة من لغات أخرى، وبيان الفترة الزمنيّة التي استعارت فيها العربيّة الألفاظ الدخيلة، والسياق الثقافيّ أو الحضاريّ الذي دخلت فيه، والوسيلة التي تمّ بها ذلك. وهل كان ذلك بتأثير دينيّ أو عن طريق الحروب، أو الهجرات أو المصالح الاقتصادية؟ وما وضع اللفظ الدخيل في لغته الأصليّة: معنى واشتقاقا؟ وهل رُوعي في أخذه عن لغته الأصلية الطريقة التي يُكتب بها في تلك اللغة أو الطريقة التي يُلفظ بها؟ وهل قُدّر لها الاستمرار والبقاء في العربيّة أو ماتت واندثرت، وما أسباب ذلك . . .؟ إلى غير ذلك من أسئلة لم

يكن منهج المعياريين القدامىٰ يتقصّدها، أو يلتزم بها.

أما تلك الإشارات التي نجدها متفرقة في المعاجم القديمة عن هٰذه الأمور، فهي لا تمثل منهجاً شمولياً في دراسة العربيّة، وكثيراً ما كانت بداعي البحث الجزئي في بعض مفردات القرآن الكريم كما فعل السيوطي. ولعل أنضج محاولة للقدماء في تحقيق أصول الكلمات تلك المحاولة التي قام بها الجواليقي في كتابه المُعَرَّب، رغم أن منهجه لم يكن شاملاً واضح المعالم، كما أنّ أدواته في المقارنة وإلمامه باللغات اللّازمة لم تكن كافية في كثير مما تَصدّىٰ له.

وعلى أي حال فإنّ ما نلمسه عند القدماء من محاولات مفيدة يمثل خُطًىً أوليّة، ولكنها تفتقر إلى الأدوات اللازمة للتّتبع التاريخيّ من معرفة مستقصية لتاريخ العربيّة عبر العصور، وإلى التخصص في مجالات محددة على شكل بحوث توضح لنا علاقة العربيّة بالحضارات التي أقيمت بينها وبين العرب جسور من التأثر والتأثير المتبادلين، وما ترتب على ذلك من تأثير على اللغة. ولأَضرب لذلك بعض الأمثلة:

فقد أَخذتْ العربيّة عن الفارسيّة على مرحلتين: المرحلة الجاهليّة وصدر الإسلام، ويقابل هٰذا في تاريخ اللغة الفارسيّة المرحلة الفهلويّة. وأما المرحلة الثانية: فيمثلها العصر العباسيّ ويقابلها بالنسبة للفارسيّة «الفارسيّة الحديثة»، وعلى هٰذا كان في وسع المرء أن يحدد لغوياً من أي المرحلتين الفارسيتين أخذت العربيّة ألفاظاً من مثل: ديباج وفالوذج، إنها ولا شك مأخوذة من المرحلة الفهلويّة، إذ هي في الفارسيّة الفهلويّة «دِيباك» و«بالُوتَك»، أما في الفارسيّة الحديثة فهي «ديبا» و«بالوده»، وأما «هنداس» (التي جاءت منها: الهندسة والمهندس . . .) و«هندام» وهو «الزّيُّ» فهي مأخوذة أيضاً من المرحلة

الفهلويّة لأنها عُرِّبَت بالهاء فهي في الفهلويّة «هنداس» و«هندام» وأما في الفارسيّة الحديثة فهما بالهمزة: «أنداز» و«أندام»[٢٠].

وأما كلمة «خواجا» (بنطق الواو)، التي أخذها العرب عن الفارسية الحديثة، فيستدل من طريقة نطق العرب لها أنهم تأثروا في أخذها بطريقة كتابتها لا بطريقة نطقها، فهي تكتب في الفارسيّة الحديثة بالواو مراعاة لطريقة نطقها التاريخيّة، ولكنّ الواو لا تنطق. ويذكّر هٰذا بما يفعله العربيّ في نطق كلمة «فِهْرَر» الألمانية التي ارتبطت عند العرب بالزعيم الألماني «هتلر» أثناء الحرب العالميّة الثانية، إذ ينطقها العرب بالهاء مع أن الهاء في النطق الألماني لها لا تظهر، وينطقها الألمان «فيرر» Führer بإشمام الياء (أي بنطق الياء مُشْربة بالواو).

ب ـ المَيْز بين العربيّ الخالص الخاص بالعربيّة، والعربيّ المشترك بين العربيّة واللغات الساميّة كالأكاديّة والعبريّة والسريانيّة والعربيّة الجنوبيّة والحبشيّة... وهل ما اشتركت فيه هٰذه اللغات هو من باب اشتراكها في الأصل والنسب أو هو من باب المصاهرة بين اللغات بغض النظر عن اشتراكها في الأصل؟ ومتى حدث ذلك؟ وفي أي سياق حضاريّ؟ لقد استطاع المنهج التاريخي المقارن أن يحقّق بعض النتائج المفيدة في هٰذا الشأن، وأن يجيب عن أسئلة كثيرة تدور في أذهان الباحثين. على نحو ما فعل «فرينكل» في تتبعه للألفاظ العربيّة ذات الأصل الآراميّ، وكما فعل «بيرجشتريسر» و«بروكلمان» وغيرهما.

٢ ـ المنهج المقارن ومستقبل الألفاظ الدخيلة.

استخدمت العربيّة منذ عصور سحيقة ألفاظاً دخيلة وفاء بحاجاتها العصريّة، فما انسجم من هٰذه الألفاظ مع الوزن العربيّ هضمته العربيّة وغدا خيوطاً طبيعية في نسيج لُحْمتها، وما لم يخضع للوزن

العربي ككثير من ألوان الأطعمة والملابس والزينة . . . التي أخذتها عن الفارسيّة، وعَجَّت بها الكتب التي تعرضت لمثل هٰذه الموضوعات كالبخلاء للجاحظ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، فقد كُتب عليها أن تموت، أو يموت أكثرها.

وعلى ذلك كان في وسع المرء من خلال المنهج المقارن أن يقرر أن كثيراً من الألفاظ التي تشيع في العربيّة الآن من أصل غير عربيّ ـ وبخاصة ما يخرج عن الوزن العربيّ ـ مثل دوبلوماسيّة، وبيروقراطيّة، وبيبليوغرافيا . . . لن يُعَمَّر طويلاً. بل إن المرء ليشاهد في عمر الفرد الواحد بزوغ ألفاظ أجنبيّة أكّد استعمالها نظامٌ ما، في بلدٍ ما، (مثل: بروليتاريا، برجوازيّة، إرستقراطيّة . . .) ثمّ أَفَلَت هٰذه الألفاظ بأفول ذلك النظام. أمّا الألفاظ التي من مثل: التلفزة، والتلفنة، والبسترة[٢١] فإن فرصتها في البقاء أوفر، لأنها تأقلمت وأخذت سِحنة عربيّة، بل استطاعت بذلك أن تتكاثر بالاشتقاق كما تتكاثر الكلمات العربيّة الأصيلة، فيقال: تَلْفَز يُتلفِز مُتلْفِز . . . الخ. وقد حدث هٰذا من قبل في تاريخ العربيّة في نحو: فلسف ويتفلسف ومتفلسف وفلاسفة، ونحو: قَرْطس وقِرْطاس وقراطيس. ومن ذلك التُّرْعَةُ وهي الباب أو فُوّهة الجدول فقد اشتق منها: التَّرَّاع وهو البوّاب، وهي سريانية الأصل. وغير ذلك كثير.

ثانياً: الدراسات النحويّة.

ثمّة أمور حَمَلت أصحاب المنهج التاريخي المقارن على إعادة النظر في قواعد اللغة العربيّة ومعاييرها، ومن ذلك ما يأتي:

١ ـ الرغبة في البحث عن مدى الصلة التي تربط اللغات الساميّة، وتحدد موقع إحداها من الأخرى، وتحدد موقع العربيّة من هٰذه اللغات. ولمّا كان النحو من الثوابت بالنسبة للمتغيرات اللغوية السريعة

التي تعتري الجوانب البلاغيّة ومعاني المفردات، فقد كانت عناية هؤلاء بالمقارنات النحويّة مسوّغة في سبيل البحث عن القواسم المشتركة التي تجمع اللغات الساميّة في إطار واحد من الأصل المشترك.

فالملاحظ أن كثيراً من أوجه الشبه قائمة بين اللغات الساميّة في تراكيبها النحويّة، وقليلاً ما يقع الخلاف بصورة جوهريّة في تراكيب هٰذه اللغات، كأن يكون موضع الفعل في الجملة الأكاديّة في نهاية الجملة، وذلك بتأثير من اللغة السومريّة، والسومريّة لغة غريبة عن اللغات الساميّة، ولكن الأكاديّة نمت وترعرعت على الأرض السومريّة فتأثرت بها في بعض الجوانب فاستعارت منها الكتابة وبعض الألفاظ، بل تأثرت بنحو هٰذه اللغة كما هي الحال في هٰذا المثال. ولعلّ من أبرز جوانب تأثّرها بالكتابة السومريّة أن حروف الحلق الساميّة كالغين والعين والحاء لم تستطع أن تظهرها طريقة الكتابة السومريّة لأن هذه الأصوات ليست من أصوات اللغة السومريّة، فعبّرت عنها الأكاديّة بالصوت الحلقي (ē) باعتباره الأقرب إلى هذه الأصوات.

٢ ـ البحث في مدى صحة النتائج التي توصل إليها المعياريون في تفسير الظواهر النحويّة وسأضرب لذلك بعض الأمثلة النحويّة، مراوحاً بين الإجمال والتفصيل:

ـ وسأبدأ بضرب مثل لذلك من باب النداء. فالمنادى في النظرة الوصفيّة البادية ينتهي في كلٍّ من العَلَم المفرد، والنكرة المقصودة، بعلامة الضم أو ما في حكمه، كالألف في المثنّىٰ، والواو في جمع المذكر السالم. وهو ينتهي بالفتحة إذا كان المنادى مضافاً أو شبيهاً بالمضاف، أو نكرة غير مقصودة.

ويُريد النحوي أنْ يُرسِّخ أصلاً واحداً يحكم باب النداء كله. فإمّا أن تكون الحالة الأولى (الضم) مردودة في أصلها إلى الثانية (الفتح) أو أن تكون الحالة الثانية راجعة أصلاً إلى الأولى. فلو عَدّ الضمّ أصلاً لكان عليه أن يفسّر أمرين: أحدهما عدمُ التنوين في حالة الضم، إذ المعروف أن المنادى إذا كان علماً مفرداً أو نكرة مقصودة لا ينوّن. وأمّا الأمر الثاني فهو تفسير الفتح في الحالات الأخرى للمنادى. فإذا كان الضمّ أصلاً فكيف جاء الفتح؟

إن الفكر النحوي التراثي ينطلق من نظرية العامل في دعم أيٍّ من الفرضيتين السابقتين. فهو يريد أن يعثر على علّة يفسر بها أصالة الضمّ إذا كان هذا هو المنطلق، ثمّ كيف تحوّل إلى فتح أو ما شاكله؟ إذ لا بدّ من «أصل» و «فرع» في تفكير القدماء، و«الأصل» و «الفرع»، وكذا «العامل» و «المعمول»، و«العلة» و «المعلول» مفاهيم «فلسفية» كان ينعكس ظلّها الفلسفي على مضمونها النحوي في تناول الظاهرة اللغويّة.

ويلزم النحويّ أن يطرح التساؤل معكوساً لو كان المنطلق هو أصالة الفتح: كيف تحوّل الفتح إلى ضمّ؟

ويبدو أن النحويّ اختبر الفرضية الأولى (الضمّ). ولكنه عجز عن علّةٍ تبيّن سبب الضم، وبخاصة أن الضمّ لا يصحبه تنوين، فاختار الفرضيّة الثانية، وهي الفتح، فأسمى المنادى المفتوح منصوباً. وقال إنّ عامل نصبه «يا» النداء أو ما شاكلها من أدوات النداء التي سدّت مسدّ فعل النداء المحذوف. وعلى هذا فإنّ فعل النداء المحذوف يمثّل العلّة الأصلية لديه في التعامل مع المنادى.

والفعل المحذوف، هذا، ليس له أصل تاريخي، ولا وجود له

في الواقع الوصفي للغة. فالذي أملى وجوده هو النظر العقلي المجرّد القائم على مقتضى نظرية العامل التي تسعى إلى تفسير يُعلل الفتح.

وقد أدرك النحوي القديم أن إلحاق المنادىٰ بالمفعول به يحيد بنا عن المعنى المقصود من النداء، إذ الجملة التي فيها «المفعول به» خبرية في عمومها، وأما النداء فضرب من الإنشاء.

ولكن النحوي يُؤْثر أن يتابع هذا الاختيار بغض النظر عمّا يمكن أن يترتب عليه من حرج. فإذا كان النصب هو الأصل فكيف يفسر الفكر النحوي القائم على نظريّة العامل ظاهرة الضمّ وما شاكله؟

يميل الفكر النحوي القديم إلى الانطلاق في تفسير كثير من الظواهر اللغويّة إلى اعتبارها راجعة إلى أصل واحد تتشعب عنه فروع أخرى، فالفعل عامل أصلي وهو العلة التي تُفسر نصب المفاعيل كلها وتفسّر كذلك رفع الفاعل. فإن لم يكن الفعل متوفراً عدّوا اسم الفاعل، أو الصفة المشبهة، أو صيغة المبالغة، أو المصدر. . . فروعاً تنوب عن الفعل في تسويغ النصب.

أما في موضوع النداء فالضم مردود إلى الأصل، فالمضموم ليس مرفوعاً، وهم ليسوا مسئولين بهذا عن بيان علّة الرفع، بل هو منصوب على الأصل الذي أرسته قاعدة العامل: «الأصل في المنادى النصب» ولذا قالوا هو مبني على الضم في محل نصب أو مبني على ما يُرفع به في محل نصب بفعل النداء المحذوف الذي سدّت مسدّه أداة النداء.

فكل شيء في النداء مردود في النهاية إلى النصب. فإن اعترضٍ مجرى القاعدة استعمالات من نحوٍ: يا زيدَ بنَ عمروٍ (بفتح زيد بدلاً

من ضمها) لم يقولوا إن زيدا منصوب حتى لا يخالفوا المعيار القاعديّ الذي يقول: إن المنادى إذا كان عَلَماً مفرداً فإنه يُبنى على الضمّ. فقالوا إن الأصل فيه الضمّ في محل نصب، والفتح هنا ليس علامة نصب، بل حركة إتباع لحركة الفتح في (ابن)،أو أن المنادى قد تركّب مع (ابن)، على نحو ما يتركب العدد على فتح الجزئين.

وأما الأنماط اللغوية من نحو: يا حسرتا، أو يا فَرَحا، أو يا قومِ ويا قومُ ويا أبتِ ويا أبَتَ، ويا أيّها الإنسانُ. . . فقد أخذ النحويّ يعالج كل حالة بردّها طَوعاً أو كرها إلى القاعدة.فقد أعرب (فَرَحا): منادى منصوب بالفتحة.ولكي يعلل النصب بما يتفق وحالات النصب التي تنص عليها القاعدة (في المضاف والشبيه به والنكرة غير المقصودة)عَدّ الصوت المفتوح الطويل الذي انتهت به الكلمة ضميرَ المتكلم (الياء) وقد قلبت هذه ألفاً. وعلى هذا فالمنادى منصوب لأنه مضاف.

وأما في نحو: يا مؤمناه، فقد عدّوا الألف في مؤمناه عوضاً عن لام جرّ محذوفة مفترضة افتراضاً. وعلى هذا فإن مؤمن منادى مبني على الضم المقدر منع من ظهوره الفتحة المناسبة للألف التعويضيّة، وأمّا الألف في نحو: وازيداه، فقالوا: إنها زائدة، و «زيد» منادى مبنيّ على الضّم في محل نصب، والهاء للسكت.

إن هذه المحاورة والمداورة محكومة بما تقتضيه نظرية العامل. وأحْسب أن نظريّة العامل قد تُقَدِّم نمطاً يحاول جاهداً أن يكون تفسيراً معقولاً أو منطقياً من الناحيَّة التعليميّة، وقد وُفِّقت في بناء هيكل عام للباب يمكن للمتعلم أن يَسْتوعبه ويسير عليه، أمّا التفصيلات الدقيقة فيُحِسُّ المرء معها ببعض مواطن الضعف والقَسْريّة

غير المُلزمــة، لا من النــاحية الــواقعيّة الـوصفيّة ولا من النـاحية التاريخيّة، بل إن المرء ليرى كيف أن الشكل الكتابي للغة قد تدخل في تفسير الجوانب الصوتية لبعضِ المشكلات، فالألف في «فَرَحا» و «حسرتا» ليست إلّا شكلاً كتابياً. أمّا من الناحية الصوتية فليست هنالك فتحة على الحاء في (فرحا) تليها ألف. ولا فرق من ناحيّة صوتية بين الألف في زيداه، ومؤمناه وفرحاه.

ويحاول المنهج التاريخي أن يفسر الألف في هذه الأنماط على أنها بقايا حروف نداء مكررة. فالذي يقول: يا زيداه. كأنّما قال: يا زيد يا، فإذا مطل الصوت كثيراً انتهى النفس بالهاء فقال: يا زيداه، وكذلك في بقية الكلمات.

وتكرار حروف النداء ظاهرة طبيعية قد يحتاج إليها الإنسان في كل لغة، وهو يعبر عن غرضي «التنبيه» أي تحضير الشخص المنادىٰ لما سيقال له، أو «التنبّه» وهو التعبير الذاتي الذي يحسّ المرء ذاتيّاً أنه في حاجة إليه أحياناً. وقد حدث مثل ذلك في إحدى شقيقات العربيّة المقرّبات، وهي اللغة الحبشيّة الجعزية، إذ يذْكر فيها حرف النداء في أول التعبير،ثم يُذْكر المنادى،ثم يكرر حرف النداء أو يكرر بعضه، فيقال مثلاً أو (=يا)+ بئست (=امرأة)+ أو (=يا)، وقد تحذف الهمزة من حرف النداء الأخير لتصبح: (أو بئستو).

وأمـا في نحو: قومِ، فقد جاءت في الاستعمال على الوجهين بالكسر والضم، فقال النحويّ القديم في تفسير الوجه الأول إنه منادى منصـوب بفتحـة مقـدرة منـع من ظهـورهـا اشتغـال المحل بحركة المناسبة، إذ تمام التعبير: يا قومي.

أما يا قومُ بالضم فمنهم من قال: إنه منادى مبني على الضم في

محل نصب وقد بُني على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظاً لا معنى ولأنـه شابه النكرة المقصودة، أو هو منادى منصوب بفعل محذوف وعلامة نصبه الفتحة المقدّرة التي منع من ظهورها الضمة. وقد ضُمّ هنا لشبهه بالنكرة المقصودة. والأصل نصبه لأنه مضاف إلى ضمير المتكلم المحذوف.

وحتى يسوغوا الضمة على الياء في يا أيُّها الإنسان، فقد عدوا (يا) أداة النداء وقد تحذف، فيقال: «أيّها الإنسان» و «أيّ» منادى مبني على الضمّ في محـل نصب، والهـاء للتنبيه والألف لإطـلاق الصوت، والإنسان بدل من أي، أو صفة لأي، مع أن النظرة الوصفيّة الخالصة تقتضي أن تكون «أيها» أداة يتوسل بها لنداء المعرّف بأل (في الغالب)، وأما النظرة التاريخية فتُعُدّ «أيّ» حرف نداء مكرّر وقد أشبع بالعناصر الإشاريّة التي يُحتاج إليها في النداء كالهاء والألف، وعلى هذا فـ (أيّ) صوت نداء يلتقي تاريخياً مع ما عرف بأسماء الأفعال الدالة على الأصوات نحو «وي» و «وَيْها» و «إيه» وما شاكلها، بل إن هذه النظرة لتؤكد ما قاله بعض القدماء من أن (يا) النداء تُعَدّ أيضاً من هذا الأصل التاريخي.

وعلى العموم فإن في وسع المرء أن يفيد في استكمال بعض الجوانب من المناهج الأخرى ليعزز ما توصل إليه المنهج المعياري، أو يعيد تفسيره، أو يصلح بعض جوانب الخلل فيه.

- وقد عدّ المعياريّون الميم المشدّدة في «اللهم» عِوضاً عن ياء النـداء المحذوفة، أما المنهج المقارن فيرى أن الميم من بقايا تأثر العـرب قديماً باليهود الذين يخاطبون الله سبحانه بصيغة الجمع، إذ يقولون إلوهيم אֱלֹהִים ومفرده إلُوَّه אֱלוֹהַּ

ـ ويرى أصحاب المنهج المقارن أن الأصل في الجملة الشرطيّة أن يكـون فعل الشرط فيها ماضياً وجواب الشرط مضارعاً مرفوعاً. ولهذا بقـايا في العـربيّة أشـار إليهـا بعض القدماء، وهو النمط السائد في الأكاديّة. وأمّا الماضي في جملة الشرط فهو نوع من أنواع الماضي المنقرض الذي ظل من بقاياه المجزوم بعد «لم» والمجزوم بعد أداة الشـرط، وعلى هٰذا فإن: «لم يدرس» تعبير عن الماضي، وهي من حيث الصياغة الشكليّة شكل من أشكال الماضي الذي انقرض من العربيّة إلّا من نحو هٰذه البقايا. ومن بقاياه في العبريّة أن يأتي بعد ما يسمّىٰ في العبريّة «واو القلب»، أي التي تقلب معنى المضارع إلى المـاضي في نحـو: وَيشْلَحْ וַיִּשְׁלַח «وأرسل» من الفعل شَلَح שָׁלַח «أرسل». ويستدل على أن المجزوم كان صيغة مطّردة وتصريفاً قائماً بذاته في اللغات الساميّة، بكثرة ورود هٰذه الصيغة في الأكاديّة إذ هي في هٰذه اللغة تصريف دال على الماضي Präteritum إلى جانب الماضي المعروف Perfekt

ـ واستُـدل على أن التنـوين ـ وهو علامة التنكير ـ أقدم من أداة التعريف في العربيّة، فالتنوين مستخدم في أقدم ما وصل إلينا من نصوص اللغات الساميّة كالأكادية (التمييم)، والأوغاريتيّة (التنوين). ولم تَستعمل هاتان اللغتان أداة للتعريف. وحتى اللغات الساميّة التي استخـدمت أداة للتعـريف فهي لم تستقر على أداة واحدة، إذ من أدوات التعـريف في اللغات الساميّة الـ (في العربيّة)، و«هل» في العبريّة، وقد أصبحت «هل» حرفاً واحداً بعد اختفاء اللام، فأصبحت أداةُ التعريف في العبريّة الهاء، وهي أداة التعريف في العربيّة البائدة (الثمـوديّة واللحيانيّة). أما العربيّة الجنوبيّة ففيها «أن» و«أم»، وهما أداتا تعريف قديمتان في العربيّة الجنوبيّة، وما تزالان تستخدمان في

بعض مناطق اليمن إلى يومنا هذا. وقد وردت الهمزة هاء في النقوش اليمنيّة القديمة، فقيل في «أن»: «هن» وفي هذا ما يؤكد أصالة الهاء التاريخيّة في أداة التعريف وحداثة الهمزة. ولا تعني هذه الأصالة أن هذه الأداة كانت موجودة في الساميّة الأم، وذلك لأن كثيراً من اللغات الساميّة القديمة كالأكاديّة والأوغاريتيّة تفتقر إلى أداة تعريف.

ـ واستدل على قِدم ظاهرة الإعراب في العربيّة بوجودها في لغات ساميّة موغلة في القدم كالأكاديّة والأوغاريتيّة.

ـ وعُدت لغة «أكلوني البراغيث» ظاهرة أصيلة بدليل اطّرادها في اللغات الساميّة كالعبريّة والآراميّة.

ـ وعُدَّ التعبير عن المبني للمجهول بصيغة فُعِل خاصاً بالعربيّة من دون أخواتها، وأما البناء للمجهول في اللغات الساميّة الأخرى فيعتمد على صيغ المطاوعة،نحو «انفعل». وفي هذا إشارة إلى حداثة صيغة «فُعِل»

ثالثاً: الدراسات الصرفيّة.

وضحت الدراسات المقارنة كثيراً من الحقائق الصرفيّة، نذكر من ذلك:

١ ـ كَشَفتْ لنا كثيراً من الأقيسة المهجورة، وهٰذا يعني أن الأقيسة كانت تزيد على ما وصل إلينا، ثمّ تقلصت، وظلت تأخذ في التقلص حتى أننا لم نعد نستعمل منها عملياً إلاّ القليل، ويستدل على كثرة هٰذه الصيغ في اللغات الساميّة القديمة بعددها الهائل في الأكاديّة. وهي في اللغات الساميّة متعددة الأشكال والأوزان، ومن ذلك أن يزاد بالهاء في نحو: هراق وبالهمزة في أراق، والزيادة بالهاء أقدم،

وتضاهيها في العبريّة الزيادة بالهاء في صيغة «هفعيل»،والزيادة بالسين في نحو: سنبس وكذلك الزيادة بالشين في نحو شهذر، والزيادة بالنون في نحو: نفطر ونبرس ونمرد والزيادة بالتّاء، نحو: ترمس، وتألب.

والزيادة بهذه الحروف جميعاً أصبحت من باب القياس المهجور في العربيّة بَيْدَ أن الزيادة بهذه الحروف جميعاً تُعَدّ قياسية سائرة في كثير من اللغات الساميّة. وقد ظن القدماء، لهجران هٰذه الأقيسة، أنّ حروف الزيادة في نحو هٰذه الكلمات حروف أصليّة[٢٢].

وقد ساعد المنهج المقارن كذلك على تبيُّن كثير من الصيغ الصرفيّة التي تأثرت فيها العربيّة بغيرها. ومن هٰذه الأوزان فَعْلِل، نحو: نرْجِس، وفاعُل نحو: آجُر، وآنُك، وفُعالِل، نحو: سُرادِق، وفاعيل، نحو: هابيل. فقد تنبه القدماء إلى أن هٰذه الصيغ ليست أصلية في العربيّة.

وقد بينت لنا الدارسات المقارنة الصيغ الصرفيّة التي اشتركت فيها العربيّة مع أخواتها، والصيغ التي انفردت بها عنها.ومن ذلك أن صيغة فاعَلَ وتفاعَلَ من الصيغ التي اشتركت فيها العربيّة والحبشيّة وانفردتا بهما، وقد زادت الحبشيّة على العربيّة في بعض الأوزان الفعليّة، وزادت الأوزان الفعليّة في العربيّة عنها في كل من الآراميّة والعبريّة، وتشابهت اللغات الساميّة في معاني كثير من الأوزان الاسميّة والفعليّة.

أمثلة تطبيقيّة على أهميّة المنهج المقارن:

١ ـ همزة «كأس»:

أوردت كتب اللغة كلمة «كأس» بالهمزة المحققة وبالألف[٢٣]، فهل همزتها أصليّة أو منقلبة؟ من المقرر في علم السّاميات أن ثمّة قانوناً

صوتياً يحكم العربيّة والأكاديّة فيما اشترك بينهما من ألفاظ. فكل لفظ مشترك بين اللغتين تضمّن في العربيّة صوت العين أو الغين أو الهمزة يقابله في الأكاديّة بانتظام (ē) أي صوت مكسورٍ بإمالة، فكلمة «غربٌ» في العربيّة هي وفقاً لهذا القانون «إيربوم» ērbum (مع ملاحظة أنّ الميم في آخر الكلمة يقابله التنوين في العربيّة، أي أن un في العربيّة = um في الأكـاديـة)،وكلمـة (ثعلبٌ) يقابلها شيلَبُم šēlabum وكلمة رأس يقابلها «ريشم» rēšum وهكذا. أمّا كلمة «كأسٍ» فهي في الأكاديّة كاسم kāsum ولـو سارت على القـاعدة لقيل: «كيشُم» kēšum . وهٰذا ما يؤكد أنّ الهمزة فيها ليست أصليّة، والكلمة تعود في الأصل إلى السومريّة، إذ لم ترد في الـنـصـوص الســاميّة التي سبقت احتكــاك الأكــاديين بالسومريّين. وقد وردت هٰذه اللفظة في نقوش السومريّين القديمة.

٢ ـ أصل «حتى»:

ورد في نقش النمارة(٢٤) كلمة «عَدْكَي» بمعنى «حتى». جاء في النقش:

«ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه عدكي هلك سنة **٢٢٣** يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده».

ويعني ذلك: «ووكّله الفرسُ والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه، حتى هلك سنة **٢٢٣**، اليوم السابع من كسلول، يا سَعْدَ مَن وَلَدَه».

إنّ ما يهمّنا من هـذا النقش أن نقف على كلمة «عُـدْكي». فلا يخفى أن «كي» في هذه الكلمة هي حرف النصب المعروف الذي يدخل على الفعل المضارع، أمّا «عد» التي تستعمل في الآراميّة بمعنى «كي»

أو «حتّى» فقد تركّبت مع «كي». وليس غريباً أن يتركّب حرفان يفيدان معنى واحداً. فأنت تركِّبُ «كي» مع اللام في العربيّة لتحصل على معنى التعليل، ولذا صح أن يقال:

جئت لأراك.
وجئت كي أراك.
وجئت لكي أراك.

وتذكر بعض النقوش العربيّة هذه الكلمة المركبة هكذا: «عَكْدَي» و «عَكْـدَىٰ» بالألف والياء. و «عَكْدَي» منقلبة عن «عَـدْكَي»، وأما «عَكْدَىٰ» فقلبت فيها الألف عن ياء «عَكْدَي». فنحن بهذا أمام آخر تطور لهذه الكلمة، وهو «عَكْدَىٰ»، فماذا حصل بعدئذٍ في سيرة حياة هـذه الكلمـة حتى تكونت منهـا كلمة «حتّى» التي نستخـدمها في العـربيّـة الفصحى؟

من المعروف أن صوت التاء والدال متقـاربان؛ فـالدال صـوت انفجاري مجهور مرقق، والتاء صوت انفجاريّ مهموس مُرقّق، وكلاهما من مخرج واحدٍ، وقد حصل هذا التماثل بينهما في نحو: ادتعَى التي أصبحت: ادّعى، ولـذا كان لنـا أن نتصور أن «عكـدىٰ» أصبحت إثر المماثلة بين التاء والدال: «عكتىٰ». وأمّا الكاف فهي صوت انفجاريّ مهمـوس مرقق. وهـذه صفات تجمـع بينه وبين التـاء، وكلاهما من الحروف الصفيريّـة التي فيها بعض آثـار الهمس. وقد سـاعد تسكين الكاف في هذه الكلمة وصفة الهمس فيها على قلبها تاء. وبذا يكون قد التقى في هذه الكلمة تاءان: إحداهما ساكنة مما أوجب إدغـامها في الثانية فأصبحت الكلمة على هذا «عتّى». وهكذا نصل في سيرة حياة

هذه الكلمة إلى القراءة المنسوبة لابن مسعود(٢٥) - رضي الله عنه - «عَتَّى حين». ثمّ قلبت العين - وهي حرف حلقي - فأصبحت حاء، وهي حرف حلقي أيضاً، كما في القراءة المعروفة «حتّى حين». والتناوب بين حروف الحلق لا يحتاج إلى مزيد من التوضيح.

٣ - نون «قنفذ»:

أمّا كلمة «قُنْفُذ» فقد أورد بعضهم أنَّ نونها زائدة، والأرجح أنّها زائدة، وقد جيء بها لفكّ الإدغام إذا تصوّرنا أن أصلها «قُفُّذ»، ويشجع على هذا أنَّ هذه الكلمة من الكلمات السّاميّة المشتركة، وهي خالية من النون في غير العربيّة(٢٦).

ويشجّع على هذا الاعتقاد أيضاً أن المعاجم تذكر في مادة (قفد) أنّ القَفَد (بالدال المهملة) يدل على الانكماش واليبس والكزازة والقِصَر، واعتمَّ القَفَدَ والقَفْداء إذا لوى عمامته على رأسه ولم يُسدلها.

كما تذكر المعاجم في مادة (قنفذ، بالذال المعجمة) أنّ تَقَنْفَذَ تعني تَقَبَّض. ومن معاني القنفذ: المكان يُنْبت نبتاً مُلتفّاً.

فهل لما بين اللفظين من تقارب - لفظاً ومعنىً - يمكن أن يَكُونا أصلاً مادة واحدة؟ (٢٧).

٤ - تأصيل صوت الجيم:

مرّ هذا الصوت بتطوّرات كثيرة؛ فمن العرب من ينطقه جيماً كما هو في الفصحى، أي: صوت مجهور رخو.

ومنهم من يلفظه «g» كما هي الحال في نطق أهل القاهرة، وهو

صوت مجهور انفجاري.

ومنهم من ينطقها دالاً فيقولون: ديش، بدلاً من: جيش، كما هي الحال في صعيد مصر، وقد حدث هذا على صعيد اللهجات القديمة فذكرت بعض المعاجم (٢٨): الدشيش والجشيش بمعنى واحد. وهو الحنطة المطحونة.

وقد تصبح قافاً في بعض اللهجات، جاء في اللسّان «ولغة أهل الحجاز في الجَصّ: القصّ» (٢٩)، وذكر أبو الطيب أنّ من العرب من يقول في الفالوذج: الفالوذق (٣٠)، وفي الجرجس: القرقس (٣١) وفي زنجيرة: زنقيرة (٣٢)... ويقول ابن منظور في «ردق»: و «الرَّدْق لغة في الرَّدَج» كما أن الشَّيْرَق لغة في الشيْرَج. وما تزال آثار هذه اللهجة ماثلة في مناطق من مصر وفلسطين. وقد حدث هذا التبادل بين العربيّة والعبريّة في مثل: لَقَمَ. وفي العبريّة Lagam «لَجَم» و hitgalgēl «هِتجَلْجيل» ويقابلها تقلقل أي تدحرج.

وقد تُصبح شيناً فيقال في الإجاءة: الإشاءة (٣٣) وهي الاضطرار، ومنه قوله تعالى: «**فأجاءها** المخاض إلى جذع النخلة» أي: اضطرها، ومن أمثلة إبدالها شيناً: جمخ وشمخ، والجناجن والشناشن، وأرج وأرش، والمجارزة والمشارزة، والهجم والهشم (٣٤)... وقال ابن الأثير: اشترّ البعير كاجتر (٣٥)، ومنه قول الشاعر:

إذْ ذاك حبكُ الوصال مُدْمش (٣٦)

والشين صوت مهموس رخو.

وقد تقلب الجيم ياء، وقد حصل هذا في القديم، ومن ذلك قول

الشاعر:

تحسبه بين الآكام شِيَرة(٣٧) شجرة

ومنه قول أم الهيثم:

إذا لم يكن فيكن ظلٌّ ولا جُنَى فأبعدكنّ الله من شِيرات

وما يزال الناس في بعض مناطق عسير والكويت وسورية يقولون: مينون

دياي ويِميع في دَجاج وجَميع . . .

والياء صوت، مجهور رخو.

وقد تقلب الجيم كافاً، نحو: يرتجّ ويرتكّ. إذا ترجرج، وريح سيهوج وسيهوك: شديدة وسجَّ بطنه وسكَّ إذا لان. . . الخ(٣٨).

وتُقلب الجيم حاء، فيقال: يحوسُ بني فلان ويجوسهم أي: يدوسهم. وأجمّ الأمر وأحمّ ويُجْلبون عليه ويُحْلبون عليه أي يعينون، وجفأت وحفأت. . . الخ(٣٩)، ولعلّ هذا من آثار التصحيف. فالجيم والحاء متباعدان صوتاً متقاربان كتابة.

وقد تنطق مُكَشْكَشَة، أي: بصوت يُشبه الصوت الأول من الكلمة الإنجليزية chair وما شاكلها وهذا من آثار تبادلها مع الكاف. وقد تنطق مُكَسْكَسَة، أي: بصوت يشبه صوت (z) في النطق الألماني، أو كما تنطق التاء عند بعض المغاربة (أي: صوت مركب من التاء والسين). ولعلّ من آثار ذلك أن أهل طرابلس الغرب ينطقونها زاياً، فيقولون في جنزور (اسم مدينة) زنزور، وفي جزّار: ززّار. . .

أمّا كيف كان يُنْطق هذا الحرف في اللغات الساميّة الأخرى؟ فإن

علماء الساميات يرون أنّه ينطق كما يُنطق في اللهجة القاهرية. فكلمة جَمَل في الحبشيّة gamal، وفي الآكاديّة gamlu، وفي العبريّة gāmāl، وفي السريانيّة gamlā، وكلها بالجيم القاهريّة أي: كما ينطق الحرف الأول من الكلمة الإنجليزيّة girl وعلى نحو ما ينطق حرف (g) عادة في الألمانيّة.

ونستطيع بالعودة إلى علم الصوتيّات أن نفسر أَسباب التعدد في نطق هذا الحرف.

فهذا الصوت الانفجاريّ المجهور - كما في لهجة القاهرة - عندما تحوّل إلى صوت مُعَطّش - كما هو في الفصحى - فقد تكَوَّن من صوتين، هما: الدال والشين، فأخذ صفة الجهر من الدال، وصفة الرخاوة من الشين. فهو صوت رخو مجهور. وقد انحلّ هذان الصوتان في بعض اللهجات على نحو ما رأينا، فأصبح بعض الناس يرجح نطق الجيم دالاً (جشيش، دشيش) ومنهم من رجّح صوت الشين فقال في اجتر البعير: اشتر.

وبعضهم نطقها بالشين وحدها. ولكنها شين مجهورة لا مهموسة، على نحو ما تنطق في بعض مدن الشام وبخاصة في كلمات مثل: خرجت أي: إذا سُكِّنت وبعدها تاء، أو سكنت وبعدها دال، مثل: وجْد، أو إذا شدّدت أو كُرِّرت، نحو: سجّادة، لجّجَ (٤٠). والشين - كما سلف - صوت رخو مهموس وقد جاءته صفة الجهر هنا من آثار تركبه مع الدال، وهي حرف مجهور.

أمّا تحوّل الجيم إلى ياء فهي ظاهرة تتكرر أيضاً في غير اللغات

السـاميّة، انـظر مثلاً كيف تحـوّل حرف اليـاء في كلمـة يـوسف حين استعملتها الإنجليزية (عن أصلها السامي) فقيل جوزيف Josef وكيف نطقتها الألمانيّة بالياء فقيل:يوسف على نحو ما تنطق بالعربيّة تقـريباً.

وانظر كيف تنطق كلمة «أريحا» بالإنجليزية Jereko جيركو،وفي الألمانيّة بالياء «ييركو» وقد عرفت العربيّة عكس هذه الظاهرة أي قلب الياء جيماً كما في عليّ وعلجّ. ومنه:

خالي عُويفُ وأبو عَلِجٍّ (٤١)

ومنه قولهم: أنا تميمِجٌّ، أي تميميّ (٤٢).

ومن الـطريف أنّ كلمـة أُرْدُن أصلهـا في العبـريّـة yarden ثمّ أصبحت في الآراميّة الفلسطينيّة yurdenā فعندمـا استعارتهـا اللغات الأوروبيّة نطقتها كل لغـة وفقاً لقـانونهـا الصوتي فهي في الإنجليـزيّة Jordan جوردن وفي الألمانية Jordanien يوردانين.

(١) الخليل بن أحمد (العين) ١/٢٣٢ .
(٢) انظر مثلاً عبد التواب (فصول في فقه اللغة) ٤٢-٤٥ .
(٣) انظر ماريو باي (لغات البشر) ص ٧ - ٨ .
(٤) انظر خليل عمايرة (في نحو اللغة وتراكيبها) ص ٤٢ .
(٥) انظر ماريو باي (لغات البشر) ص ٧ .
(٦) انظر الدراستين اللتين أجراهما كوبف L. Kopf وهما :
- Arabische Etymologien und parallelen zum Bibelwörterbuch. Vetus Testamentum 8 (1958) S. 161-215, 9 (1959) 247-287.
- Das arabische Wörterbuch als Hilfsmittel für die hebräische Lexikographie. Vetus Testamentum 6 (1956) S. 286-302.

والدراسة التي أجراها باول دي لاجاردي في المقارنة بين البنى الاسميّة الشائعة في كل من الآراميّة والعربيّة والعبريّة
Übersicht über die im Aramäischen, Arabischen und Hebraischen übliche Bildung der Nomina. Gottingen 1889.

وانظر أيضاً :
- A. Guillaune: Hebrew and Arabic Lexicography, A comparative study. Abr-Nahrain 1 (1959/60) pp. 3-35; 2 (1960/6) pp. 5-35; 3 (1961/62) pp. 1-10; 4 (1963/64) pp. 1-18.
- H.H. Hirschberg: Some additional Arabic etymologies in Old Testament Lexicography. Vetus Testament 11 (1961) pp. 373-385.

(٧) انظر هيكر ص ٦ .
(٨) انظر في ذلك :
1. F. Delitzsch, Assyrische Grammatik mit Paradigmen, Übungsstücken, Glosser und Litteratur. Berlin 1889.
2. Von Soden, Grundriss der akkadischen Grammatik, Analecta

Orientalia 33, Rom 1952.
3. A. Ungnad, Grammatik des Akkadischen, vollig neubearbeitet von L. Matouš, 5. Auflage, Munchen 1969.
4. K. Riemschneider, Lehrbuch des Akkadischen, Leipzig 1973.

(٩) للوقوف على أظهر تقسيم للغات الساميّة انظر:

1. H. Bauer and P. Leander, Historische Grammatik der hebräischen sprache. Halle 1922.
2. Beeston, A Descriptive Grammer of Epigraphic South Arabian. London 1962.
3. C.H. Gorden, Ugaritic Textbook. Roma 1965.
4. Z.S. Harris, Development of the Canaanite Dialects: an Investigation in linguistic History. repr. N.Y 1967.
5. C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen Bd. I-II, Berlin 1908-1913.
6. C. Brockelmann, Semitische Sprachwissenschaft. Zweite verbesserte Auflage 1916.

(١٠) لعل من أكثر المستشرقين عناية بتقسيم العربيّة إلى مراحل زمنيّة المستشرق الألماني Wolfdietrich Fischer، وقد ترجمنا له في هذا الشأن بحثاً بعنوان «المراحل الزمنيّة للعربيّة الفصحى» المجلّة الثقافيّة، الجامعة الأردنية ١٩٨٧م.

(١١) انظر فرينكل ص ٣، ٣٠، ٦٣، ٢٤٤، وغيرها. وقد بنى فرينكل على مسألة البداوة والحضر كثيراً من آرائه التي ترتب عليها ردّ كثير من الكلمات العربيّة إلى أصول آراميّة أو سواها، وهو مذهب يشيع عند كثير من المستشرقين غيره.

(١٢) انظر فرينكل في معالجته لكلمة «طلْمة» ص ٣٥ على سبيل المثال.

(١٣) وقد عدّ بيرجشتريسر الاشتقاق أهم الحجج للحكم على أصل الكلمة قال: «وأهم الحجج: وجود اشتقاق ظاهر بيِّن للكلمة، في إحدى اللغتين، مع عدمه في الأخرى» بيرجشتريسر (التطور النحوي) ص ٢١٩.

(١٤) انظر جزينيوس ص ٥٣٨ .

(١٥) بيرجشتريسر (التطور النحوي) ص ٢٢٢ .

(١٦) بيرجشتريسر (التطور النحوي) ص ٢٢٣ .

(١٧) بيرجشتريسر (التطور النحوي) ص ٢٢٥ .

(١٨) انظر روسلر (١٩٥٠) .

(١٩) ماريو باي (لغات البشر) ص ٦٣ .

(٢٠) انظر مقدمة ف. عبد الرحيم لكتاب المُعرّب للجواليقي.

(٢١) لقد أقر مجمع القاهرة استعمال الألفاظ: بستر، وبلور، وبلشف (من البلشفيّة) وتلفن وفبرك (صنع الشيء بالآلة) وجبس (من الجبس) وكهرب. وقد جاء في مجموعة القرارات التي أصدرها المجمع في كتاب بعنوان:في أصول اللغة ص ٢٥٢ . «وتوافق اللجنة على أن يقرر المجمع ما جرى به الاستعمال من تلك الأفعال التي أوردها الباحث لمجيء اشتقاقه على وزن عربي صحيح ولكونه سائغاً في الذوق» .

(٢٢) انظر عمايرة (معالم دارسة في الصرف: الأقيسة الفعليّة المهجورة) .

(٢٣) انظر ابن منظور (كأس)، وابن عصفور (الممتع) ١ / ٤٠٤ .

(٢٤) يعود هذا النصّ إلى سنة ٣٢٨م . وقد كُتِبَ على النصب التذكاري على قبر ملك عربي اسمه «مَرَ القيس» . وقد عُثر عليه في بلدة النمارة، إلى الجنوب من دمشق . وهو مكتوب بشكل من أشكال الخط الآرامي . ويُعَدُّ هذا النصّ أقدم نصّ وصل إلينا بالعربيّة، فهو أقدم من نصوص الشعر الجاهلي القديمة التي وصلت بما يقرب من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ سنة . انظر حول هذا النقش بعلبكي (١٩٨١) ص ١٢٤ ، ومولّر ص ٣٠ .
W. Müller, Das Altarabische der Inschriften aus vorislamischer Zeit, in Grundriss der arabischen philologie (S. 30-36).

(٢٥)انظر أبا حيّان ٥/ ٣٠٧ .

(٢٦)جزينيوس ص ٧١٩ .

(٢٧) ولا يخفى أنّ حرف الدال والذال متقاربان، بل هما في كثير من السّاميات شكلان لحرف واحد. ففي حالات محدّدة ينطق ذالاً وفي حالات أخرى يُنطق دالاً، ومن آثار هذه الظاهرة في العربيّة عدد كبير من الكلمات (انظر السيوطي ١/٥٤٤) مثل: خردلتُ، وادْرَعَفّت، واقْدَحَرّ، وعَدُوف، ومِذْل، والدحْداح، وبلدم ودَفَفْتُ. . . بالدال والذال.

(٢٨) انظر مثلاً ابن منظور (جشش)، والفيروز آبادي (جشش).

(٢٩) ابن منظور (جصص).

(٣٠) أبو الطيّب ١/٢٤٠.

(٣١) أبو الطيّب ١/٢٤٤.

(٣٢) أبو الطيب ١/٢٤٣.

(٣٣) انظر الفيروز آبادي (أجأ)، وانظر: بداية باب الجيم من: الفيروزآبادي أيضاً.

(٣٤) أبو الطيب ١/٢٦٦ ـ ٢٦٨، وانظر تيمور ص ١٥ وما بعدها.

(٣٥) ابن منظور (شرر).

(٣٦) ابن منظور (دمج).

(٣٧) ابن منظور (شجر).

(٣٨) انظر السيوطي ١/٤٦٥.

(٣٩) انظر السيوطي ١/٥٤١.

(٤٠) انظر محيي الدين رمضان ص ١١٣.

(٤١) انظر سيبويه ٤/١٨٢.

(٤٢) ابن منظور (شجر).

المنهــج الوصفــي

تمهيد :

مرّ بنا أن الحركة الاستشراقيّة ليست مقطوعة عن مسايرة الاتجاهات الفكريّة في بلادها، ولو طبّقنا هذا المبدأ على الاستشراق لغوياً لرأينا أن البحوث الاستشراقيّة اللغويّة كانت في جوهرها تسير على المنهج التاريخيّ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهو المنهج الذي ازدهر في هذين القرنين على صعيد الدراسات اللغويّة الأوروبيّة بعامة، إلى أن جاء القرن العشرون ، إذ مال البحث اللغوي إلى اتجاه آخر وهو المنهج الوصفيّ وبخاصة بعد أن ظهر «ف. دي سوسير» ومدرسته في العقد الثاني من القرن العشرين، وكتابه «منهج علم اللغويات العامة»(١)، ثمّ مدرسة براغ، ومن كتّابها N. Trubetskoy وله «مبادىء علم وظائف الأصوات» Grundzüge der Phonologie. 1939، ثم المدرسة الأمريكيّة المسمّاة الأنتروبولوجيّة، ومن أعلامها: سابير Sapir، وبلومفيلد Bloomfield، وهاريس Harris.

الصلة بين المنهج الوصفي والمناهج الأخرىٰ.

ولا يعني ذلك أن البحث اللغويّ كان لا يعمد إلى الوصف قبل القرن العشرين، كما لا يعني ذلك أن المنهج التاريخيّ أو سواه من

مناهج البحث اللغوي في أي فترة من تاريخ البحث اللغوي، يمكن له أن يستغني عن وصف الظاهرة اللغويّة قبل تحليلها، أو تفسيرها، أو دراستها دراسة معياريّة أو تاريخيّة، أو تاريخيّة مقارنة، بَيْدَ أنّ مما لا شكّ فيه أنّ ثمّة اتجاهاً وصفياً متميزاً عن الاتجاهات السابقة، أخذ يُطبِّق خطواته على اللغة، متجاوزاً في ذلك المبادىء الوصفيّة التي لا يَستغني عنها أيّ منهج لغويّ يمكن أن يتصدّى لبحث الظاهرة اللغويّة. إنّ هٰذا هو ما نعنيه بالمنهج الوصفيّ.

مميّزات المنهج الوصفيّ، ومفارقاته للمناهج الأخرىٰ

لعل من أظهر ما يميّز هذا المنهج ما يأتي:

أولاً: الاهتمام باللغات الحيّة والعزوف عن دراسة اللغات القديمة.

إن ممّا يتميّز به المنهج الوصفي الاهتمام بواقع الظاهرة اللغويّة، وليس بتاريخ تطورها ـ كما يفعل المنهج التاريخيّ ـ ولذا كان تركيزهم على وصفها من خلال واقعها المنطوق، وليس من خلال الوثائق المكتوبة ـ كما فعل أصحاب المنهج التاريخيّ ـ فقد كان مَلْحَظ الوصفيين في نقد أصحاب المنهج التاريخيّ مركّزاً على أن قواعد الإملاء والكتابة لن ترقى، في وَصْف الظاهرة اللغويّة، مهما دقّت هٰذه القواعد، إلى ما يُتَوَصَّل إليه من خلال النطق الحيّ.

وانطلاقاً من هذه النظرة كان عُزوف أصحاب هذا المنهج عن دراسة اللغات القديمة كالسنسكريتيّة، واليونانيّة القديمة، واللاتينيّة، فقد بادت هذه اللغات ولم يَعُدْ يُسْعف في وصفها إلّا الاعتماد على القدرة الناقصة للكتابة وقواعد الإملاء. وفي مقابل هذا العُزوف كان

إقبالهم على دراسة اللغات الحيّة.

ويقابل هذا على صعيد الدراسات الاستشراقيّة تلك البحوث التي تصف العربيّة الفصحى من خلال استعمالها المعاصر. وعلى هٰذا فقد تعاملوا مع العربيّة الفصحى على أنها تمثّل صعيدين متقابلين متباينين[٢]: **الفصحى القديمة**، ويسمونها العربيّة الكلاسيكيّة على نحو ما يسمون اللغات القديمة كاليونانية، واللاتينيّة - وأمر الفصحى القديمة متروك لمحاولات المنهج التاريخيّ والتاريخيّ المقارن كما هي الحال في اللغات الأوروبيّة القديمة - **والفصحى المعاصرة** ويطلقون هٰذه التسميّة على العربيّة التي تربط بين الناطقين بالعربيّة في أيامنا على صعيد الحياة الثقافيّة والرسميّة. وهي تُحظى بالقيمة الحقيقيّة لمواصفات المنهج الوصفي بمقدار ما تتحقق في الاستعمال المنطوق. وعلى هٰذا كانت العاميّات العربيّة أقرب إلى تجسيد المعنى الحقيقي للغة في نظر الوصفيين.

وتبدو آثار الدهشة واضحة على النظرة العربيّة المعياريّة التي اعتادت أن تنظر إلى انحرافات الكتّاب صرفيّاً أو نحويّاً، أو دلاليّاً، على أنّها أخطاء يَهُبّ من أجل إصلاحها نفر من الباحثين في مقالات أو كُتَيِّبات، أو حتى في معاجم تؤلّف لرصد الأخطاء الشائعة[٣]، في الوقت الذي نجد فيه محاولات أخرىٰ لأصحاب المنهج الوصفي - المستشرقين والعرب - ينظر إليها من خلال هذه الأخطاء على أنها محاولات من اللغة للدخول في مرحلة جديدة، وعلى هٰذا فإن هٰذه الأخطاء - في نظرهم - ليست سوى ملامح جديدة، أو مميّزات جديدة لمرحلة جديدة.

وفي هذا المعنى يقول «ستتكيفتش»: «إن العربيّة الحديثة تظهر

إلى الوجود بقدر ما يحدث فيها من تغيير يجعلها مختلفة عن العربيّة القديمة»(٤). ومما يؤكد أنّهم لا يَعُدّون الخروج على قواعد النحاة من باب الخطأ اللغويّ ما قاله «و. فيشر»: «ووفقاً لهذا النظام (يعني قواعد النحاة) أصبح ينظر إلى كلّ تغيير باعتباره خطأ أو انحرافاً بتأثير من اللغة الدارجة Volgärismus، لا على أنّه تغيير في طرائق الاستعمال اللغويّ»(٥).

قواعد النحاة بين الوصفيّة والمعياريّة.

إن القواعد النحويّة التقليديّة على هٰذا، ـ عند «فيشر» ـ لا تنبع من مقتضيات المنهج الوصفي، بل هي معياريّة، لا يهمها وصف اللغة بمقدار ما يهمّها اطّراد قواعدها(٦)، وهٰذا يعني أن النحاة القدامى كانوا يغضّون النظر عن الاستعمالات اللغويّة التي تعارض قواعدهم. وهو رأي يراه بعض علماء اللغة إزاء موقفهم من النحاة المعياريين الذين وضعوا قواعد اللغات الأوروبيّة القديمة. وفي هٰذا يقول «ماريو باي» واصفاً جهود هؤلاء النحويين: «فقد سنّوا القوانين النحويّة ما شاء لهم هواهم، ثمّ دأبوا على التقليل من شأن أي استخدامٍ للغة فيه خروج على قوانينهم واعتبروا أنّه من باب الخطأ»(٧).

إنَّ رأي المستشرق «فيشر» في النحو العربي يعكس ما قاله «ماريو باي» في النحو العربي بوضوح جليّ، وينعكس هذا الرأي على ما سنرى على بعض اللغويين العرب.

لا شكّ في أنّ اللغة العربيّة قد وُضعت قواعدها وَضْعاً رُوعي فيه الرغبة في اطّراد القواعد، وهو أمر لا مناص منه ـ فيما نحسب ـ في سبيل الوصول إلى صيغة مفهومة مطردة للغة، وبخاصة في المجال التعليميّ.

فالمعياريّة مبدأ مهمّ في رسم قواعد اللغات. ولا ينبغي أن تكون المعياريّة مقرونة بهوى النحاة بالضرورة، إذ لا بدّ من أن ترتكز على أُسُس وصفيّة. فما اطّرد أو شذّ أو قلّ أو جاز - إلى غير ذلك من أحكام نحويّة - لا يأتي به النحويّ على هواه، بل هو من واقع النصوص اللغويّة بقَدْر ما كان في وسع النحاة استخلاصه. أمّا إن كنّا نريد أن نحاكم القدامى على عدم الدّقة الوصفيّة من خلال ما يتيسر لنا الآن من إمكانات التوصيف اللغويّ المتطوّرة والأجهزة «الإحصائية» الدقيقة ففي هٰذا ما لا يخفى من التجنّي. ولا يعني هٰذا أن ننكر أن يكون «هوىٰ» النحاة قد أثّر أحياناً على رسم القواعد وتوصيف الظواهر اللغويّة.

وأحسب أن إبراهيم أنيس كان واحدا ممن جانبوا الصواب في تقويمه لجهود النحاة القدامى، فقد راح ينظر إلى النحاة نظرة قاسية، ففي حديثه عن ظاهرة الإعراب في العربيّة يقرّر أن هٰذه الظاهرة بلغت في العربيّة حدّاً كبيراً من الدقة والاطّراد « ولا تعرف لغة من لغات البشريّة مثل هٰذه الدقة والاطّراد في ظاهرة من ظواهرها» على حدّ تعبيره ولكنها - في نظره - ليس لها ما يسوّغ اطّرادها في اللغة، فهي مجرد «قصّة»«استمدّت خيوطها من ظواهر لغويّة متناثرة بين قبائل الجزيرة العربيّة، ثم حبكت، وتمّ نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الأول الهجري أو أوائل الثاني، على يد قوم من صُنّاع الكلام نشأوا معظم حياتهم في البيئة العراقيّة، ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الإعراب حِصْناً منيعاً، امتنع حتى على الكتّاب، والخطباء، والشعراء من فصحاء العربيّة، وشق اقتحامه إلّا على قوم سُمّوا فيما بعد بالنحاة»(٨).

ثمّ راح يصف منهج النحاة في ذلك بقوله: «ولم يقتصر عمل أولئك الذين أسّسوا قواعد الإعراب على السّماع والجمع واستنباط

الأصول، بل قاسوا ما لم يسمعوا على ما سمعوا، وأسرفوا في قياسهم وابتكروا في اللغة أصولاً وقواعد، رغبة منهم في اطّراد الإعراب وانطباقه على كل أسلوب، أو انطباق كل أسلوب عليه. . . ولسنا ندري كيف خضع لأولئك النحاة فصحاء العرب وأصحاب اللسن فيهم»(٩) مع أن ظاهرة الإعراب - في نظره - «لم تكن سليقة في متناول العرب جميعاً» وهو بهذا الافتراض يخالف مذهب النحاة في أن اللغة مُعْربة، وهو يفترض إلى جانب ذلك أن تكون النصوص المرويّة «من صنع بعض النحاة بعد أن أسسوا قواعدهم وأصولهم»(١٠). وهكذا يتضخم هوى النحاة عند إبراهيم أنيس كما تضخم من قبل في مقولة «ماريو باي» السابقة.

ولسنا نريد هنا أن نقف على مناقشة إبراهيم أنيس ومِن قبله «كارل فوللرز» (الذي اعتقد أن اللغة العربيّة لم تكن مُعْربة في العصر الجاهلي ولا في صدر الإسلام - بما في ذلك لغة القرآن الكريم - وأن الإعراب قد جاء من عند النحاة) فظاهرة الإعراب لم تَعُدْ ظاهرة يُجادل في قِدَمها بعد أن استطاع علمُ الساميّات المقارن أن يثبت أصالتها في العربيّة بعد أن ثَبتت أصالتها في شقيقاتها الساميّات التي تسبق زمن التقعيد النحوي عند العرب بقرون عديدة(١١). ثم أليس من التعسّف أن يُنكر الإعراب في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم وغيرهما مما وصل إلينا من النصوص المعربة المتواترة في روايتها وكتابتها حيث يُظهر الوزن الشعري ذلك ويشهد به الإعراب بالحروف؟.

لقد أردنا الإشارة إلى ظاهرة الإعراب وما قيل فيها على سبيل التمثيل - لا الحصر - لما يمكن أن يَزِلّ فيه الباحث، وهو يحكم على

تجارب الآخرين، من خلال ما تجرّه إليه أحكامُ منهجٍ مُعَيّن، دون أن يحْتاط لنفسه بالقدر الكافي الذي يمكن أن تتطلبه منه أحكام المناهج الأخرىٰ. فالظاهرة اللغويّة تشبه في الطبيعة الشكل المادي، إنها كالمكعب، لا يكفي لوصفه أن تسلط عليه الضوء من نور مصباحٍ واحد يضيء سطحاً واحداً من مساحاته، وتخفىٰ عندئذٍ أسطحه الأخرىٰ، ولذا كان أدعىٰ في محاولة الإحاطة بحقيقة الظاهرة اللغويّة أن تسلّط على أبعادها أضواء المناهج المتعددة، وبحسب الحاجة إلى ذلك.

فإذا كان من شعارات المدرسة الوصفيّة «أن اللغة الحقيقية هي اللغة التي يستخدمها الناس فعلاً، لا اللغة التي يعتقد البعض أن على الناس أن يستخدموها»(١٢)، فإن من حق أصحاب المدرسة المعياريّة أن يتساءلوا: أليست اللغة ـ فيما يؤيد الوصفيون ـ في حركة دائمة مستمرّة، فهي تختلف من زمنٍ إلى زمن، وهي تتطوّر على عدّة محاور: زمنيّة، ومكانيّة، وطبقيّة، وحضاريّة . . . فإذا أردنا أن تؤدي اللغة وظيفتها الاجتماعية بتحقيق التواصل بين أكبر عدد من الناس، أفليس منطقياً ـ عندئذٍ ـ أن يُهْمَل، من أجل اطّراد القواعد، كثير مما يمكن أن يقرِّره المنهج الوصفي من ظواهر لغويّة؟ ثم أليس من حق المعياريين ـ في سبيل هٰذه الغاية ـ أن يقفوا موقفاً حازماً من الظواهر الشاذّة أو النادرة حتى لو كانت «لبعض الفحول من شعراء الجاهليّة كالنابغة»(١٣)، على حدّ قول إبراهيم أنيس.

لا شكّ في أن المعياريين قد تجاوزوا متطلبات الوصف في كثير من الأحيان، في سبيل اطّراد القواعد، وبخاصة في سبيل تسويغ الاطراد وتعليله، وأسرفوا في استخدام الأساليب المنطقيّه والفلسفيّة

لهـذا الغـرض، واعتسفـوا، أحياناً، في الحذف والتقدير، والتأويل البعيد. أمّا مبدأ الاحتفاء بالقاعدة المطّردة والاهتمام بالمعيار فهو أمر مهمّ في تحقيق التواصل اللغوي، الذي لا يتحقق بالتركيز المكافئ على الشاذّ والنادر.

إن كثيراً من الباحثين ينظرون إلى اللغة من خلال معايير التطوّر اللغـوي الخـالصة، ومن خلال نظرتهم إلى طبيعة اللغات الأخرى ـ غير العربيّة ـ ولا تعنيهم الطبيعة الخاصة لعلاقة اللغة العربيّة بالقرآن الكريم، ومن هنا كان ينبغي أن يظل تطوّرها مَنوطاً ـ مهما اتّسع ـ بالقواعد الأساسيّة التي جاءت عليها لغة القرآن الكريم، حتى يظلّ مُتَسَنىً للأجيال ـ مهما توسَّعت في تطويع اللغة لمتطلبات عصورها ـ أن تقرأ القرآن فتفهه. ولذا كان لا بدّ للعربيّة أن تأخذ بالمعياريّة في تقرير قواعدها.

ولا يعني ذلـك أن العـربيّة وحدها التي تهتم بالمعياريّة، فالمعيار متـطلب ضروري لتحقيق التـواصـل والاستقرار اللغويّ بين مجموعة الفئات التي تنتمى إليها الأمة، وتسجل به تراثها، وتزداد الحاجة إلى المعايير كلّما كبرت الأمة واتسعت رقعتها الحضاريّة وامتدّ بها الزمان.

وينبغي أن نتذكر ونحن نتعـامل مـع العربيّـة الفرقَ الكبيـر بين تاريخها وتاريخ اللغات القديمـة كاليـونانيّـة، والعبريّـة، والسريـانيّة، والسنسكريتيّة، والأكاديّة، وغيرها. فهذه اللغات لغات تاريخيّـة أدّت دورها ثمّ انقطعت عن الحياة منذ أمَدٍ بعيد.

أمّا العربيّة فهي لم تنقطع عن الحياة، بل هي الشريان الذي تتدفق فيه الحياة الثقافيّة على مرّ العصور دون تـوقّف إلى زماننـا هذا. فـإن

حصلت اختلافات عبر العصور فهي يسيرة، لا تحول بين الباحث اللغويّ والبحث الـدقيق لهذه اللغة، وما يزال علم القراءات القرآنيّة ـ فضلاً على الاستخدام الحي المنطوق والمكتوب للغة الفصحى ـ دليلاً على تواترها المستمر دون انقطاع، وعلى وفائها بمتطلبات التفاهم بها.ومن هنا كان من التعسّف أنْ تؤخذ العربيّة بتلك المعاييـر التي أُخذت بهـا اللغات الأخرى البائدة.

وثمّـة أمـر لا يُسلَّم به لأصحاب الاتجاه الوصفي، وهو تنكّرهم للنصوص المكتوبة، فنحن لا نشك في مزايا النصّ المنطوق، من حيث وصف الأصوات، وقوانين النبر، والتنغيم، وما شاكل ذلك من ميادين تعتمد على نطق اللغة. بَيْدَ أنّ تشديد النكير على أنْ توصف اللغة من خلال النصوص المكتوبة، فيه قدر من المغالاة، بل هو يفوّت الفرصة التي يتميّز بهـا النصّ التراثي المكتوب أحياناً. فمن المعلوم أن من أسباب اختلاف اللهجات المنطوقة عن الفصحى أن الناس قد يتباينون في النبر والتنغيم، والهمز والتسهيل، والقصر والمدّ، والإدغام والفكّ، والحذف والإثبات، والنّحت، وغير ذلك من الظواهر اللغويّة التي قد يكـون النص المكتـوب فيها أكثر ثبوتاً واستقراراً من المنطوق. وإلى جانب ذلك فإن النصوص المكتوبة قد استقرّت معانيها ودلالاتها أكثر من النصوص المنطوقة التي ظلت على مستوى النطق، ولم ترق إلى مستوى الكتابة بها.

ومن المعلوم أن لغـات واسعة الانتشار كالإنجليزيّة والصينيّة قد تعوّل على الشكل المكتوب أحياناً في تحقيق التفاهم بين الناطقين بها أكثـر ممـا تعـوّل على الشكـل المنـطوق. وفي هٰذا المعنى يقـول «أولمان»: «ولقد أمدتنا الصين بمثالٍ غاية في الأهميّة يوضح لنا دور

الكتابة بوصفها عاملاً من عوامل التماسك اللغويّ. فهناك في هٰذه البلاد لا يستطيع كثير من المتكلمين باللهجات المختلفة أن يتّصل بعضهم ببعض أو أن يتفاهموا إلّا بطريق الكتابة التقليدية»[١٤].

وعلى أيّ حالٍ فإنّ ثمّة دراسات لغويّة كثيرة قد أُجريت على العربيّة الفصحى المعاصرة، طبقت فيها قواعد المنهج الوصفي[١٥].

ثانياً: الاهتمام بالنحو التعليمي:

إن الطريقة الوصفيّة قريبة النتائج، دانية الثمار؛ ولذا كان سبيل الإفادة منها في مجال التعليم أكثر من الإفادة من الطريقة التاريخيّة، أو الطريقة التاريخةّ المقارنة، فتلك تتجاوز في أهدافها ونتائجها البعد التعليميّ للبحث اللغويّ.

ولذا فقد عمدت الدراسات التعليميّة إلى اتّباع المنهج الوصفي في وضع الكتب التعليميّة، وهو منهج يستهدف وصف الظاهرة اللغويّة دون مقارنتها، أو دون الوقوف على مراحل التطّور التي سبقت، بل يصفها كما هي، من حيث اطّراد قواعدها ومدى شيوع هٰذه القواعد.

فإن أراد الباحث الوصفيّ أن يقف مثلاً على أيّ أعضاء الجسد ألزم لمعرفة اسمه ـ في تعلّم لغة ما ـ من بقية الأعضاء، تراه عمد إلى استنباط ذلك من بحث مدى شيوعها في بيئة لغويّة محدّدة: زماناً، ومكاناً، وأقواماً، ومستويات ثقافية أو تخصصيّة معينة. ويستخرج ذلك مما يدور على ألسنة الناس أو مما يكتب في الصحف الدارجة، أو المجلات، أو الكتب المتخصّصة، وقد يخرج بنتيجة مفادها مثلاً أن كلمة «عين» أكثر انتشاراً من كلمة «رُكْبَة». ولا يهمه بعدئذٍ ما يهتم به الباحث الذي يأخذ بالمنهج التاريخيّ. فذلك يتطلع إلى أن يعرف: هل

هٰذه الكلمة أو تلك كانت تنطق وتستعمل في عصورها الغابرة على نحو ما تنطق وتُستعمل عليه الآن؟ فتراه لهذا يقارن طريقة نطقها وتفرّع معانيها في هٰذه اللغة بما جاء عليه نطقها واستعمالها في لغات أخرى تنتمي إلى الأسرة اللغويّة نفسها.

فكلمة «رُكْبة» مثلاً يترجح لدى الباحثين في المنهج التاريخي أنّها منقلبة عن بَرْكة مستدلين على ذلك بأن هذه الكلمة من الألفاظ الساميّة المشتركة.وقد وردت في جميع اللغات الساميّة التي استعملتها من الجذر «برك» وليس من «ركب». ثم يشفعون هذا الدليل بدليل آخر، وهو أن العربيّة ما تزال تحتفظ بنحو «بَرَكَ الجمل» إذا جثا على رُكْبتيه.

أمّا المنهج الوصفيّ فلا يعنيه سوى أن يتلقّى الكلمة في وضعها الحالي فيحدد مقاطعها، ووزنها الصرفيّ، واشتقاقاتها، ومعناها أو معانيها، وما شاكل ذلك من أسئلة تتعلق بواقع اللفظة من حيث الاستعمال الجاري.

يهتم الباحث التاريخيّ بمعرفة ما إن كانت هٰذه اللفظة أو تلك أصيلة أو دخيلة، ثم إذا كانت دخيلة فهل دخلت على حالها-كما تدخل كثير الألفاظ الأوروبيّة إلى لغتنا حاليّاً- دون أن تخضع للأوزان العربيّة نحو كلاسيكية، وبرجوازية، وديماغوجيّة. . . أم تراها دخلت بعد أن خضعت للوزن العربي، نحو: تلفاز، وقسطاس، وقرطاس؟ و ما المصير الذي يمكن أن ينتظر كلمات من النوع الأول، والنوع الثاني؟ فتراه يستنتج الحكم عليها من خلال ما تأتّى لكثير من الألفاظ الفارسيّة، والتركيّة، واليونانيّة، التي دخلت إلى العربيّة دون أن تخضع للوزن العربي، فقد كانت عرضة للاندثار أو التبدّل أكثر من تلك التي دخلت إلى العربيّة موافقة للأوزان العربيّة المألوفة من نحو سَجَنْجَلْ (مرآة)،

وبَنْجكـان (نـوع من اللعب الـراقص(١٦) ، أو نـوع من الأسهم(١٧))، والزنجبيل (من أنواع التوابل) (١٨) ، وأُنباشي (رتبة عسكريّة تركيّة).

وأمّا نحو: أوتومبيل، وأوتوبيس، وبروفسور، فهي ألفاظ دخلت إلى العربيّة عن طريق اللغات الأوروبيّة ولكنّ نُبُوَّها عن الوزن العربي عجّل في رحيلها.

أما المنهج الوصفيّ فهو لا يهتم بالبحث عن منبع الكلمات: من أيّ اللغات انحدرت؟ فكلمات من مثل بَلْسَم، وحَبْل، وأَرض، ووادٍ، وغيرها انتقلت إلى بعض اللغات الأوروبيّة وأصبحت جزءاً من ثروة تلك اللغات. ومهمة الباحث الوصفيّ أن يرى ما تؤديه هذه الألفاظ من معانٍ في تلك اللغات، لا إلى ما كانت تؤديه من معانٍ في لغتها الأصليّة، وهو بالتالي لا يهتم باستنباط العلاقات الحضاريّة والتاريخيّة بين الشعوب من خلال اللغات.

إنّ ألفاظاً من نحو: كثيف، وهِمَّة، ومُحَصِّل، هي ألفاظ فارسيّة عربيّة الأصل. ولكن الفارسيّة قد استقـرّت على استعمالهـا استعمالاً خاصّاً بها، مغايراً لما استقرت عليه في العربيّة (تعني الأولى: وسخ وتعني الثـانية محبّـة، والثالثـة: طالب أو تلميـذ)، كما أن الكلمـات الأرديّـة: خط، وغليظ، وانتقال، وإجـابت، واشتهار، كلمـاتُ عربيّـة الأصل، ولكنّ الأرديّة قـد استعملتها بـدلالة خـاصة بهـا (فخطّ تعني رسالة، وغليظ: نجـاسة، وانتقـال: موت، وإجـابة: قبـول الدعـاء، واشتهار: إعلان).

وثمّة كلمات عربيّة نحو: ضابط، وعَرْضحال، ومتصرّف... لم تأخذ مدلولاتها المعروفة حالياً إلاّ بعد أن استعارتها التـركيّة فـأكسبتها

معانيها الدلاليّة المحددة اصطلاحا، ثم استعادتها العربيّة ثانية، ولكن بالمدلولات الجديدة، ولذا كان من غير المتوقع أن يجد المرء في المعجمات القديمة ما يوضّح له المعاني الاصطلاحيّة المحدّدة التي انتهت إليها هذه الألفاظ من خلال الاستعمال التركيّ.

إن صاحب المنهج التاريخيّ يعنيه أن يقف على كلّ هٰذه التفصيلات، ويشكو من افتقار العربيّة إلى معجم تاريخيّ، أمّا صاحب المنهج الوصفيّ فلا يعنيه من ذلك سوى ما استقرت عليه كلُّ لفظة، في أيّ لغة بغض النظر عن أصل معناها في لغتها الأمّ، فتراه يبحث عن أكثر الألفاظ شيوعاً في الدلالة على معنى معين، ثم يعيد ترتيب هٰذه الألفاظ وَفقاً لذلك. فإن كان للفظة الواحدة أكثرُ من معنى تراه يبحث عن أيّ معانيها أكثر استعمالاً، وهكذا.

التوازن في تطبيق المناهج اللغوية في الأغراض التعليميّة.

إن ما يضرّ في المناهج اللغويّة أن يُغالَىٰ في الأخذ بأيّ منها على حساب إهمال الآخر، فمن الخطأ مثلاً إذا أردت أن تتعلم الألمانية أن تستحضر متطلبات المقارنة بينها وبين اللغة الإنجليزيّة، وكذلك إذا أَرَدْتَ أن تتعلم العبريّة، فلا ينبغي أن تقف على مناحي الشبه بينها وبين أخواتها من اللغات الساميّة، على نحو ما يفعل كثير من المهتمين بتعليم اللغات الساميّة التقليديين. إن شرطاً كهذا يقتضي أن يكون المعلِّم والمتعلِّم مُلمَّيْن بقواعد اللغة التي يستعينان بها في تعلّم اللغة الأخرى. وبذا تصبح العمليّة التعليميّة وقد انصرفت على نحوٍ ما عن غرضها الأساسي - وهو تعلّم اللغة الجديدة - إلى غرض آخر، وهو المقارنة والموازنة - وهو مهم لا ريب، غير أنّ هذا المجال ليس مخصّصاً لتحقيقه.

ومن جانب آخر يُخطئ المرء وهو يمارس تعليم لغة - كالعربيّة مثلاً - إذا لم يُنَبِّه تلميذه إلى مغبّة ما يمكن أن يقع فيه طالب تركيّ، أو فارسي، أو باكستاني . . . حين يفرح - وهو يتعامل مع العربيّة - بمصادفة كلماتٍ كانت لغته قد استعارتها من العربيّة يوماً ما، ولكن استعمالها في اللغة المُستعيرة قد اختلف - ولو بمقدار - عن استعمالها في اللغة المُعيرة. فإذا تيسّر للمُعلِّم أن يجنب الطالب عن طريق المقارنة بين هاتين اللغتينِ - من خلال إلمامه بهما - يكون بذلك قد أدى واجباً تعليمياً مُهماً.

ولعلّ من الأمثلة الحيّة التي تؤكد ضرورة الموازنة بين لغتين - إذا استدعي الأمر - ما لاحظناه شخصياً من وقوع الطالب الذي يدرس العربيّة من غير العرب في أخطاء مبعثها الترجمة الحرفيّة لأفكاره بكلمات عربيّة، ولكن بتراكيب لغته الأمّ. فإذا كان في ميسور المعلّم أن يقف به على أصل هذا الخطأ فقد يساعده بهذا في تجنبه.

وقد أشرنا سابقاً إلى أن المنهج التقابليّ قد أفاد كثيراً من مبدأ المقابلة بين اللغة الأم واللغة المراد تعلمها لتجنيب المتعلم الأخطاء الناتجة عن إسقاط عاداته اللغويّة الأصيلة على اللغة الجديدة التي يعتزم تعلمها. ويمثل المنهج التقابليّ بهذا نظرة متوازنة في الجانب التعليميّ التربويّ بين المنهج المقارن والمنهج الوصفيّ.

وكما يغضّ أصحاب المنهج الوصفي النظر عن مقارنة أي لغة باللغات الأخرى، فهم يغضّون النظر عن مقارنة حاضر اللغة بماضيها؛ وبذا فإن التطور التاريخيّ للغة الواحدة يُعَدّ عندهم أمراً غير ذي بال. ولكن أصحاب المنهج التاريخيّ يُعَوِّلون كثيراً في بحوثهم على جانب

التطور، فتراهم يبحثون عن وجوه الاختلاف بين مراحل اللغة على صعيد الألفاظ وتطوّرها الدلالي، والتراكيب والأصوات، والأوزان، والمقاطع وغيرها. كيف كانت الظاهرة اللغوية؟و كيف أصبحت؟ وإلى أين تتجه؟

أمّا المنهج الوصفيّ فيهتم مثلاً بالمدلول الحاليّ لكلمات من نحو: قطار، وسيّارة، وطائرة، وهاتف، ولا يحتفي بالمفهوم القديم لهذه الكلمات إلّا بمقدار ما بقي له من حياة يُثبتها الاستعمال اللغويّ، فإذا اندثرت كلمة من مجال الاستعمال، أو اندثر معناها القديم لم يُلتفت إلى ما اندثر. والعكس صحيح، فلو استحدثت كلمة لم تكن من قبل نحو: بَسْترة (اللبن)، والتلفزة، والكندشة (للتكييف الجوي)، والتَلْفَنة (من التلفون)، فإنّه يهتم بذلك.

وبذا يتضح الفرق الكبير بين مشروعين كبيرين على صعيد التأليف المعجمي: مشروع هانزفير Hans Wehr في معجمه:

Arabisches Wörterbuch für die Schriftsprache der Gegenwart.

«معجم اللغة العربيّة المعاصرة» ويحاول فيه أن يجمع الألفاظ العربيّة المعاصرة من خلال استعمالها الدّارج[١٩]، ومشروع «أوغست فيشر» August Fischer «المعجم اللغويّ التاريخيّ»، الذي يحاكي في خطته معجم أكسفورد التاريخيّ. وفيه محاولة لرصد معاني الكلمة على امتداد عصور زمنيّة متباعدة، وبيئات مكانيّة متعدّدة، وبذا يكون في وسع الباحث «أن يدرك النتائج اللّازمة في التطوّر التاريخي للكلمة ومعانيها»[٢٠]. وهو هدف لا شكّ في قيمته وأهميته.

يُستنتج مما سَلَف مدى أهميّة المنهج التاريخي الذي يرمي إلى

التوصل إلى حقائق عميقة دقيقة عن أصل الظاهرة اللغويّة، أمّا المنهج الـوصفيّ فيرمي إلى تقـريرها وبيان مدى اطّـرادقواعدها، كلّ ذلك من خلال الاستعمـال الحيّ للغـة، وهـو هدف لا يُستغنى عنـه أيضـاً في الدراسات اللغويّة. وبذا تكون اللغة في حاجة ماسّة إلى نتائج المناهج على حدّ سواء، وإن كانت الحاجة إلى أحدها تتفاوت من مجال لآخر.

وقد كان للمستشرقين جهود واضحة في تأليف الكتب التعليميّة التي ترمي إلى وصف قواعد اللغة العربيّة ومفرداتها وأصواتها بغـرض تقريبها تعليميّاً لغير الناطقين بالعربيّة(٢١). وهي كُتب يختلف أكثرها في منهجه عن منهجنا المألوف في تعليم العربيّة، إنّهم يصفون العربيّة على طرائقهم في تقعيد لغاتهم، ولسنا هنـا بصدد المقـارنة بين الـطريقتين تعليميّـاً. ويكفي أن نشير إلى أن نـظريّة العـامل، والعلّة، والحـذف والتقدير وما شاكل ذلك من أسس هي عماد طريقتنا في تعلّم العربيّـة ليست هي الـطرائق المعوّل عليهـا عندهم في وصف العـربيّـة وبنـاء قواعدها.

وقد كان اهتمامهم باللغـة قائمـاً على مراعـاة أسس مختلفة كالتفريق بين لغة المدن والقرى والبوادي. فقد درس «باور» L. Bauer لهجات أهل المدن والفلاحين في فلسطين:
Das Palastinische Arabisch. Die Dialekte des Stadters und des Fellachen. Leipzig 1926.

ولـ: «باور» معجم ألماني ـ عربي يرصد فيه ألفاظ لهجتي فلسطين ولبنان:
Deutsch - Arabisches Wörterbuch der Umgangssprache in Palastina und im Libanon. Wiesbaden [2]1957.

ولـ: «بلانك» دراسة عن لهجات بدو النقب في فلسطين:
H. BLANC: The Arabic Dialect of the Negev Bedouins, The Israel Academy of Sciences and Humanities Proceedings IV 7 (1970) 112-150.

وغيرها كثير(٢٢).

ومن هـذه الأسس الفرق بين الـطوائف الدينيّـة، كـالنصـرانيّـة واليهوديّة، كالدراسة التي أجراها «بلاو» Blau عن قواعد لهجة النصارى في فلسطين.
Joshua Blau: A Grammar of Christian Arabic, based mainly on South-Palestinian texts from the first Millennium (Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, Vol. 267). Louvain 1966-1968.

المستشرقون والقيمة التعليميّة في كتب التراث اللغويّة.

لا شك في أن المستشـرقين يجـدون صعوبة في أن يفهموا اللغة العربيّة من خلال كتب التراث اللغوي العربيّة، وبخاصة أنهم يقبلون عليها وقد تمكّنوا من طرائقهم في درس لغاتهم. بيد أن فريقاً منهم على الأقـل كان قادراً على فهم النحـو العـربي فهماً جيداً، فقد ترجم «يانز» كتاب سيبويه إلى الألمانية ترجمة تَنمُّ عن فهم، وقد اعتمد يانز في ذلك على شرح السيرافي لكتاب سيبويه. وكان ديونبورغ الفرنسيّ قد حققه من قبل تحقيقاً أقام فيه النصّ على نحوٍ مقبول، وقد ترجمت بعض كتب النحو كالأجروميّة وشرح ابن عقيل وغير ذلك، فضلاً عن جهودهم في تحقيق كتب التراث اللغويّ.

بَيْد أن عزوف هؤلاء عن النحو العربيّ يعود إلى اعتقادهم بـأن النحو العربي كان معياريّاً أكثر منه وصفيّاً، بمعنى أنه يهتم باطّرادِ القواعد ولو على حساب إغفال كثير من الظواهر اللغويّة. وفي هذا المعنى يقول فيشر في بحثه «المراحل الزمنيّة للعربيّة الفصحى»:

«إنّ من يعتقد ـ كما كـان يحدث غـالباً في المـاضي ـ أن النحو العربي كان وصفيّاً في تناوله للغة العربيّة الفصحى، يكون قد استسلم إلى خطأ جسيم، فالنحو العربيّ ـ مع احتمال استثناء سيبويه ـ لم يكن على درجة كبيرة من الوصفيّة للغته، وإنما كان بالدرجة الأولى مُشَكِّلاً Gestaller معيارياً لها».

ولعـلّ في هذا ما يفسّـر إقبالهم على دراسة اللهجات العربيّة القديمة، على نحو ما فعل «هانز كوفلر» في مقالاته التي نشرها تباعاً بعنـوان «بقـايا اللهجـات العـربيّة القـديمـة»[٢٣]، في إطار الجهود المبذولة لإعادة وصف اللغة من جديد.

المستشرقون والأسس الوصفيّة للدرس اللغويّ.

إنّ شكّ كثير من المستشرقين في جدوى الدراسات المعياريّة القديمة هو الذي حدا بهم إلى محاولة إعادة تقعيد اللغة على أسس وصفيّة جديدة، منها:

١ ـ ضرورة العودة إلى النصوص الأدبيّة ثانية وعدم الاكتفاء بقواعد النحـاة في وصف الـواقـع اللغويّ للعربيّة. وهٰذا ما فعله «نولدكه» الذي راح

يرصد الظواهر اللغويّة التي يعتقد أنها تخرج على ما ألفناه من قواعد النحو العربيّ، ممّا صادفه فيما رجع إليه من مخطوطات ونصوص قديمة مطبوعة. وقد خصص لهذا كتاباً قال إن مادته تجمعت لديه على مدى أربعين عاماً[٢٣]، وهو كتاب: «في قواعد العربيّة الفصحى» نشره سنة ١٨٩٧ في فينّا، ثم أعيد نشره سنة ١٩٦٣:

Theodor Nöldeke: Zur Grammatik des Classischen Arabisch, im Anhang von Anton Spitaler, Darmstadt 1963.

بَيْدَ أن عدم اطلاع «نولدكه» الكافي على كتب التراث النحويّ فوّت عليه أن يعرف أن كثيراً مما أورده قد ذكره النحاة القدامىٰ من قبل.

وحتى الكتب التي لم تتقصّد الوقوف على الظواهر اللغويّة التي تخالف ما نصّت عليه قواعد النحاة، فقد كان أصحابها يعودون لتقرير قواعد اللغة إلى كتب النصوص القديمة لاستخلاص القواعد منها. ولذا كنتَ ترى أن جلّ الشواهد التي وردت عند «وليم رايت» في كتابه قواعد اللغة العربيّة:

W. Wright: A Grammer of the Arabic Language, 3rd ed. Cambridge 1964-67.

ليست هي الشواهد التي ألفناها في كتب النحو العربيّة.

والملاحظة نفسها تنطبق على كتابات ريكندورف Reckendorf، وأوغست فيشر August Fischer ويوهان فوك Johann Fück وغيرهم.

٢ ـ مراعاة الفصل بين مستويات اللغة، كالفصل بين استعمال اللغة في مجال الشعر، واستعمالها في النثر الأدبي الرفيع، كالخطب، والمديح، ووصف المآثر . . . والنثر الأدبي الدارج، كالأمثال والحكايات. ومن أمثلة الكتب التي أخذت بهذا المنهج كتاب بلوخ:

الشعر واللغة في العربيّة القديمة:
A. Bloch: Vers und Sprache im altarabischen. Basel 1946.

وكتاب مانفرد أولمان «دراسات في شعر الرّجز»:
Manfred Ullmann: Untersuchungen zur Rağazpoesie.Wiesbaden 1966.

ومما يؤخذ على «ريكندورف» Hermann Reckendorf في كتابه Arabische Syntax «التراكيب العربيّة» أنه لم يُفرِّق بين مستوى الشعر ومستوى النثر في وصفه لقواعد اللغة العربيّة. وهو المأخذ الذي يؤخذ في العادة على كتب التراث النحوي القديم.

٣ـ ملاحظة الفروق التي تترتب على اختلاف الموضوعات، وأغراضها، وانتماءاتها زماناً، ومكاناً، وإبراز الفروق الشكليّة بينها. وقد شك كثير منهم في صحة بعض الشواهد النحويّة التي أوردها النحاة، فعدّوها مصنوعة Fabriziert (٢٥) ولكن كثيراً من الجهود التي قدّمت في هذا المجال تحتاج إلى جهود أخرى في مراجعتها والتوثّق من مدى صحة نسبتها ـ كما زعموا ـ إلى عصرها، ومصرها، وقائليها.

وهذه المسألة مربوطة على نحوٍ ما بالشك في رواية الشعر القديم، وما أثير حولها من جدل.

٤ ـ إجراء دراسات وصفيّة مسحيّة للظاهرة اللغويّة، على نحو ما فعل بيرجشتريسر في «أدوات النفي والاستفهام في القرآن الكريم»، وريناته يعقوبي في «الجملة الشرطيّة في القرآن الكريم» وغيرها من البحوث.

ولعلماء المنهج الوصفيّ ـ ويُخَصّ الأنثروبولوجيون منهم ـ فلسفة خاصة في تعلّم اللغات، عمادها:

ـ الاعتماد على جانب النطق قبل الكتابة، ولذا كنت تراهم يهتمون بمختبرات تعليم اللغة، واستخدام الأشرطة، والسّماعات... أكثر من اهتمامهم بتعليم اللغة من خلال النصوص.

ـ عدم الاعتماد على الكتب القديمة، وما تقادم العهد به من التسجيلات، إذ لا بدّ من أن يراعى في تعليم اللغة آخر صورة استقرت عليها، حتى لو خالفت بذلك ما نُصّ عليه من قواعد قديمة أو أصبحت في عداد القديمة. ويُعَدّ تقادم العهد على الدراسة الوصفيّة السابقة سبباً كافياً لإجراء دراسة وصفيّة أخرى. ولذا فقد كان تقادم العهد على قائمة الألفاظ الشائعة التي أعدها موشى بريل Moshe Brill عن لغة الصحافة اليومية فيما بين سنتي ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩م سبباً كافياً لدى بوبتسين Bobzin لإعداد قائمة جديدة، نشرها سنة ١٩٨٠م، وأخرى مكمّلة لها نشرها سنة ١٩٨٣م.

ـ عدم جدوى مقابلة لغة بلغة أخرى للاتكاء تعليميّاً على ما بينهما من أوجه شبه.

أمّا العلماء الذين ساروا على المنهج التاريخيّ، فإنهم - على عكس هؤلاء - يحفلون بتعليم اللغة من خلال نصوصها المستقرّة، وهم يعلّمون اللغة من خلال تحليل النص إلى مفرداته، وتراكيبه، ويستعينون على فهمه بمقارنته بالنصوص الأخرى في لغات مختلفة.

ولا شك في أن الطريقة الوصفيّة أسرع عطاءً من الناحية التعليميّة، وأقرب إلى الواقعيّة، بَيْدَ أنّ الوصفيين يخلطون أحياناً - في حكمهم على أصحاب المنهج التاريخيّ - بين متطلبات البحث اللغويّ العلميّ، ومتطلبات البحث اللغويّ التعليميّ. فلا شكّ في أن منهج البحث التاريخيّ يَلْزم لزوماً بالغاً في حلّ كثير من المشكلات اللغويّة العلميّة، وإن كان من الناحية التعليميّة يظلّ مرجوحاً، إذا ما قورن بالنتائج السريعة التي يمكن أن يُتوصل إليها من خلال المنهج الوصفيّ.

وقد بيّنا سابقاً كيف أن المقارنة بين اللغات قد تلزم أحياناً في العمليّة التعليميّة. ونشير هنا إلى أن المقارنة بين مرحلتين من مراحل حياة اللغة الواحدة قد يكون له أثر كبير في تعمّق معنى النصّ والوقوف على ظلاله التاريخيّة والحضاريّة، ولا شكّ في أهميّة ذلك حتى من الناحية التعليميّة. وكثيراً ما كانت اللغة وثيقة مهمة لدى المؤرخ الحضاريّ وهو يقرأ من خلال تأثر لغة بأخرى،مدى تأثر أمة بأمة،وحضارة بحضارة.

ثالثاً - الاهتمام باللهجات المحكيّة:

تولد عن اهتمام أصحاب المنهج الوصفي باللغة في صورتها

المنطوقة ـ دون المكتوبة ـ أن عُني هؤلاء عناية كبيرة باللهجات. وقد كان المنهج التاريخيّ لا يبالي بها كثيراً،لافتقار القديمة منها إلى الوثائق الكافية، ولعدم اعتماد الحديثة منها في الكتابة. فالشاعر أو الكاتب الذي يتكلّم بلهجته الخاصة تراه يكتب شعره باللغة المتعارف عليها ثقافياً.

أما أصحاب المنهج الوصفيّ فقد أعطوا اللهجات عناية لم يعطوها اللغات الرسميّة، وبخاصة إذا كانت هذه اللغات تقتصر على الكتابة دون الحديث كاللاتينيّة و اليونانية القديمة مثلاً.

وقد أسفرت الدراسات الوصفيّة للهجات،إلى تقسيم اللغة الواحدة إلى مستويات:

- معياريّة Standard Language
- ولهجيّة dialect
- ولغة العامة Slang
- ولغة الخاصة jargon (وهي التي تشيع في وسط حِرْفي ما).
- والمبتذلة Vulgarisms.

إلى غير ذلك من تقسيمات يُراعىٰ فيها اختلاف الحرفة والطبقة الاجتماعيّة، والمذهب، والبيئة... الخ).

وقد يفترق المنهج الوصفيّ عن غيره في نظرته لهذه التقسيمات التي تتدرّج فيها المستويات اللغويّة في اختلافاتها، فالوصفيون ينظرون إلى هٰذه اللهجات نظرة متكافئة من حيث أهميّة كلّ لهجة في التعبير عن فئتها وقد يُنظر إلى هٰذه اللهجات في غير هٰذا المنهج باعتبار لهجة أفضل من لهجة أو أرقىٰ، أو أرق أو أخشن وهكذا.

وقد ظهر مع الاهتمام باللهجات ما عرف باسم الجغرافيا اللغويّة أو اللغويات الجغرافيّة، فقد «نُشر أوّل أطلس لغويّ ألّفه جليرون وأدموند اسمه: الأطلس اللغويّ لفرنسا Atlas Linguistique de la France سنة ١٩٠٢ - ١٩٢٠»(٢٦) وقد جاءت الدراسة الجغرافيّة للهجات في بلاد الشام مزامنة لذلك الأطلس الفرنسي. فقد نشر المستشرق الألمانيّ بيرجشتريسر G. Bergstrasser بحثه «الأطلس اللغويّ لسوريا وفلسطين» سنة ١٩١٥ بعنوان:

Sprachatlas von Syrien und Palastina, ZDPV 38 (1915) 169-222.

وثمّة أطالس جغرافيّة لدراسة اللهجات العربيّة في مصر والشام والمغرب، وهي من أعمال المستشرقين.

وفي هذا ما يدل على الاتصال والتزامن الوثيقين بين ما يطبق على اللغات الأوروبيّة والشرقيّة، وقد انعكس الاتجاه العام للبحث في اللهجات الأوروبيّة على دراسات المستشرقين، فقد أخذوا يُوْلُون اللهجات العربيّة الحديثّة عناية خاصة، يدفعهم إلى ذلك اعتبارات نقف عند أبرزها:

دواعي اهتمام المستشرقين باللهجات العربيّة.

ولعل من أظهر هذه الدواعي ما يأتي:

أ - ما نحن بصدده من حديث عن عناية المنهج الوصفي - وبخاصة مع مطالع القرن العشرين - باللهجات عموماً، على صعيد اللغات الأوروبيّة وغيرها. وقد كان ذلك في كثير من الأحيان - على حساب إهمال اللغات الرسميّة المتداولة فضلاً على المنقرضة.

ب - تزامُن نضج المنهج الوصفي مع طغيان الحركة الاستعماريّة

للبلاد الإسلاميّة. فلا بدّ من متخصّصين باللهجات الدارجة لأصحاب البلاد المستعمرة، حتى يسهل حكمهم والتعايش معهم.

ج ـ الرغبة في دراسة الشعوب الإسلاميّة، تسهيلاً لتحقيق مكاسب اقتصادية، وتجاريّة، ولا يتأتّى ذلك بدقّة ما لم يقفوا على القصص الشعبيّة والحكايات، والعادات، والتقاليد، ليتمكّنوا بذلك من تزويد مصانعم ومتاجرهم بمستلزمات هذه الشعوب، وبكيفيّة التخاطب معها.

د ـ الرغبة في نشر أفكارهم الدينيّة، أو العلمانيّة أو سواها، ولا أبلغ من الدلالة على ذلك ممّا ذكره ا. ل شاتليه عن القسّ الأمريكي «فليمنغ» وهو يبحث في الصعوبات التي تحول دون تنصير العوامّ من المسلمين. فقد رأى هذا القسّ «أن يتعلم المبشرون لهجاتها (لهجات العربيّة) العامّة واصطلاحاتها نظريّاً وعمليّاً... وأن يخاطبوا المسلمين على قَدْر عقولهم ومستوى علمهم، ويجب أن تلقى الخطب عليهم بأصوات رخيمة وبفصاحة، وأن يخطب المبشّر وهو جالس ليكون أشد على السامعين، وأن لا تتخلل خطاباته كلمات أجنبيّة عنهم... ومن الضروريّ أن يكون خبيراً بالنفس الشرقيّة..»(٢٧).

وقد بلغ من شدّة اهتمام المستشرقين باللهجات الدارجة أن عَدُّوها اللغات الجديرة بالدراسة دون الفصحى، فقد ذهب بعضهم إلى إنكار أن تكون الفصحى لغة حيّة،قياساً على واقع اللغتين اليونانيّة واللاتينيّة. وهذا ما فعله الخوري مارون غصن في كتابه «حياة اللغات وموتها، اللغة العاميّة» الذي أصدره عام ١٩٢٥، فقد راح هذا يؤبّن اللغة العربيّة الفصحى انطلاقاً من افتراض أن «كل لغة سائرة إلى الفناء»(٢٨).

وهذا مستشرق آخر، هو «وليم بولك» يقول في تقديمه لكتاب

«العربيّة الفصحى الحديثة» لـ: «ستتكيفتش»، متسائلاً، ساخراً، من تعلّق العرب باللغة الفصحى: «أليست اللغة ـ قبل كلّ شيء مجردَ وسيلة اتصال، ومن ثَمَّ تُقَوَّم ـ بصورة أساسيّة ـ في ضوء الجوانب العملية؟ وإذا ما وجدت وسيلة أفضل متوفرة ألا ينبغي اتخاذها؟ أيمكن أن تكون ثمّة مزية حقيقيّة في المحافظة على لغات لا تفي بما يطلب منها؟ لغات هجرت منذ أمدٍ أو في طريقها إلى أن تهجر»(٢٩).

إن في مثل هذا الكلام لما يؤكد ما قلناه، وهو أن هؤلاء المستشرقين لا ينظرون إلى اللغة العربيّة من خلال ربطها بالرسالة المنوطة بها، وهي حفظ القرآن الكريم، فكيف بهم إذا جَمَعَ بعضهم إلى ذلك سوء النيّة المبيّت(٣٠).

الفرق بين مفهوم اللغة الفصحى ومفهوم اللغة الكلاسيكيّة.

يخلط كثير من المستشرقين بين مفهوم الكلاسيكيّة من واقع لغاتهم ـ وهو مفهوم تاريخيّ يدلّ على أن تلك اللغات قد انتهت من واقع الاستعمال اللغويّ ـ ومفهوم الفصحى وهو ليس مفهوماً منقطعاً عن الحاضر بالنسبة إلى اللغة العربيّة الفصحى، فالعربيّة إذن يلتقي واقعها مع لغاتهم في أمر، ويفترق معها في أمرٍ آخر، إنها تلتقي مع تلك اللغات في صفة القِدَم. وانطلاقاً من هذه الصفة يمكن أن تُنْعت بأنّها «كلاسيكيّة»، ولكنّها ما تزال اللغة المعياريّة الدارجة Standard Language وهذا ما لا تتصف به لغاتهم الكلاسيكيّة.

وقد لمس «فيشر» هذا المعنى بوعي بقوله «ومن هنا ينظر إلى مصطلح «العربيّة الكلاسيكيّة» لا باعتباره اصطلاحاً دالاً على تاريخ اللغة، وإنما هو إشارة إلى واقع اجتماعيّ لغويّ»(٣١) فما تزال العربيّة

الفصحى اللغة الرسميّة لدى الجميع، وهي اللغة الثقافيّة لدى الجميع، وميزة أخرى لها جاءت من هاتين الميزتين، وهي أنّها اللغة الرسميّة والثقافيّة التي تربط جميع العصور.

ويذهب المستشرقون الذين يدعون إلى العاميّة إلى ضرورة أن يُحْسَم الأمر لصالح اللهجات،لا إلى صالح الفصحى، ثم يركّزون في تسويغ ذلك على أن الفصحى تُكتسب بالتعلّم، كأيّ لغة ثانية بعد أن يكون المرء قد تمكن من لهجته الدارجة، بوصفها اللغة الأم. وقد ترتب على استخدام الفصحى والعاميّة ازدواجيّة لغويّة (٣٢).

ولا يخفى ما في هذه المقولة من جهل أو تجاهل لإصرار الناطقين بالعربيّة على الفصحى، لأسباب دينيّة وحضاريّة ليست قائمة في علاقاتهم هم بلغاتهم، أمّا الازدواجيّة التي يعيشها العرب فهي أمر طبيعي يعيشه أصحاب اللغات الأخرى، كما أنّ هذه اللهجات على صلة وثيقة بالفصحى، كتلك الصلة التي تصل اللهجات الإنجليزية، والأمريكيّة، والكنديّة ـ مثلاً ـ باللغة الإنجليزيّة التي يتداولها.العلماء والشعراء(٣٣)، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الفروق بين اللغة ولهجاتها قد تزيدُ أو تَقِلّ.

ثمّ إن البحث اللغوي لا يستطيع ـ بحجّة الفرق بين المنطوق والمكتوب ـ أن يتجاهل أهميّة اللغة المكتوبة، فيجري وراء المنطوق، فلو سلّمنا بهذا المنطق، لكان علينا أن نتصور أن العلماء، إذا انتهوا من وصف لهجة منطوقة، فإنه ربما يكون آن الأوان، لاعتبار ما صنعوه قد أصبح في خدمة لغة تاريخيّة. فاللغة التي وصفوا تكون قد انتقلت إلى حال أخرى تستدعي وصفاً جديداً. وهذا تصوّر خاطىء يخرج باللغة عن

هـدف أسمى من أهدافهـا، وهو تحقيق قـدر من التفاهم والاستقـرار الاجتماعيّ والنفسيّ.

ولا ننسى أنّ أيّ أمة من الأمم التي تجمعها لغة حضاريّة لا بدّ أن تتباين طرائق نطقها تبايناً ما، يمليه اختلاف البيئة مكـاناً، وزمـاناً، أو المذهب، أو الطبقة، أو الحرفة إلى غير ذلك من اعتبارات، فماذا نصف عندئذٍ: ألغة هذه المدينة أم تلك؟ ألمدينة أم الريف، أم البادية...؟ إذن، لا بدّ لنا من التركيز على اللغة التي اصطلح عليها الجميع بوصفها اللغة الحضاريّة المُجرّبة، وهي التي ارتضاها الجميع قـاسماً مشتـركاً بينهم.

تعايش الفصحى واللهجات.

إنّ الوجود الفعليّ للهجات يُعَدُّ أمراً طبيعياً وظاهرة مسلماً بها على صعيد العربيّة وغيرها من اللغات، وبخاصة تلك اللغات الواسعـة في انتشارها، العريقة في مـاضيها. ولا غبـار على ذلك، ولا سبيل إلى تجنّبه، وإن كانت الحكمة تقتضي أن يُخفّف من حدّة الفروق اللهجيّة حتى لا يترتب على تباين اللهجات إعاقة التفاهم بين أصحابها، ونحن نعرف أن النصّ القرآنيّ الكريم قد راعى الفروق اللهجيّة فتنـزّلت بها القراءات، وإن كان المعتمد والأساس الذي يجتمع عليه الناس ـ على اختلاف لهجاتهم ـ تلك القراءات التي تمثل ذلك الصعيد اللغوي الذي تشرحه قواعد اللغة الفصحى. ومما يجدر ذكره أن الفصحى قد قامت على لون من ألوان الائتلاف بين اللهجات القديمة، وهو منهج في التشكل اللغوي تُرى آثاره في العربيّة إلى اليوم.

ولمّا كانت اللغة ظاهرة نفسيّة اجتماعيّة فإن التباين لا بدّ من حدوثه، وإلّا فكيف لنا أن نحول دون أن تنعكس الفروق البيئيّة والمستويات الحضاريّة ـ بين سكان المدن والصحارى والأرياف والمهن المتعددة على اتساع أصقاع واسعة ـ على اللغة؟ وقد لا يكون في وسع الباحث إنكار الفروق الفرديّة في استخدام اللغة، بل الفروق اللغويّة في عمر الفرد الواحد.

فإذا كان هذا حاصلاً لا محالة فإن علينا أن نحافظ من خلال الوسائل التعليميّة والإعلاميّة وغيرها على أن تظلّ المسافة معقولة بين اللهجات والفصحى، حتى لا تتحول اللهجات إلى لغات مستقلة، كما حدث حين استقلت المالطيّة عن العربيّة، وذلك لأن أهل مالطا ـ وهم من النصارى ـ لا تربطهم بالفصحى أي روابط حضاريّة يأسفون لها، أو هكذا بدا لهم الأمر.

وينبغي ألا ننسىٰ ـ ونحن نتعامل مع الفصحى ـ أنّها تمثّل اللغة الرفيعة للثقافة والحضارة، فهي تحتاج إلى مزيد من الخاصّة الذين يحقّقون ذلك المستوى الرفيع للفصحى حضارياً، وهذا يعني أن النهوض بالفصحى يتطلّب التوسع في رفع المستوى الحضاري للإنسان، فإذا ما تأتّىٰ ذلك تأتّىٰ تبعاً له اقتراب الإنسان من الفصحى، وهو بذلك يكون قد ابتعد عن المستوى البعيد الذي يمكن أن تصل إليه العاميّة، أعني ذلك المستوى الذي يبلغ حدّاً يصعب فهمه.

وقد لوحظ أن المستويات المثقفة من الناطقين بالعربيّة يسهل عليهم ـ وإن لم يتكلموا العربيّة الفصحى الراقية ـ أن يتفاهموا من خلال ذلك المستوى اللغوي الذي تحسّ إزاءه بأن المتحدث ـ وإن كان يحمل

في حديثه ملامح لهجته الخاصة ـ يستطيع أن يوصل فكره بوضوح إلى أبناء اللهجات الأخرى، لأنه اتكأ في ذلك على القدر المشترك الذي يجمعهم جميعاً، ألا وهو الثقافة اللغويّة الفصيحة.

ويزداد هذا الأمر وضوحاً إذا كان المتحدّث يقرأ ما يقوله مكتوباً أو يلقيه في خطبة أو كلمة جامعة، أو يخاطب الناس به في صحيفة أو سواها فإنك قد لا تدرك بيسر ـ وأنت تستمع إلى نشرة إخبارية أو ندوة ثقافية ـ **إلى أي اللهجات ينتمي هذا المتحدث، ولا يكاد يَنمّ عن لهجته إلّا في بعض مواطن النبر أو في نطق بعض الحروف.**

إنّ الإغراق في المحليّة، يُبْعد الناس عن أن ينصهروا في بوتقة الثقافة اللغويّة الموحدة، وهذا يعني أن الفئة الخاصة ـ وهي التي تتجاوز في تفكيرها حدودها المحليّة ـ سوف تنحلّ أو تضمحلّ حين تُغْرِق في محلّيتها، وبالتالي فإن جمهور «المحلية» سوف يزداد، والمحليّة هي في واقع الأمر محليّات، كل ينتمي إلى بيئته الضيّقة، وبالتالي إلى لهجته الخاصّة، وبمقدار انطواء هذه المحليّة تكون قد ابتعدت عن الصعيد الموحد المُمثَّل ـ هنا ـ في اللغة الفصحى.

ومن جانب آخر، فإن الفئة المثقفة بطيئة في تطوّرها اللغوي، ميالة إلى الاستقرار باللغة، وهذا من مقتضيات التوحّد الثقافي بين الناطقين باللغة الواحدة. وهو معروف مقرّر من خلال تاريخ العربيّة وغيرها.

فمعلوم أن العربيّة الفصحى لا تتطوّر على النحو الذي تتطوّر عليه كلّ لهجة من لهجاتها، وهذا راجع ـ فضلاً عن انشدادها إلى المحور

القرآني الكريم - إلى أنها لغة الخاصّة من المثقفين في العصور القديمة والعصور اللاحقة، وعلى صعيد الأصقاع البعيدة التي امتد إليها رواق اللغة العربيّة الفصحى.

وقد مرّت اللاتينيّة بظروف مشابهة، فقد حافظت هذه اللغة على استقرارها حين كانت لغة الطبقة المثقفة - فضلاً عن المكانة الدينية لهذه اللغة، ثم انحلّت وتشتّت لهجاتها في مرحلة لاحقة حين أخذ الناس «يقلّدون لغة صيادي السمك الفقراء والعبيد» (٣٤) الذين خلفوا في نفوذهم نفوذ الحكام والمثقفين.

الفرق بين أن تُدرس اللهجات لأسباب علميّة وأن تدرس بغرض الدعوة لإحلالها محلّ الفصحىٰ

لا ينبغي أن يُعْزَف عن دراسة اللهجات إذا لم تكن النيّة من وراء دراستها التمهيد لإحلالها محلّ الفصحى. وعلينا أنّ نميّز بين دراسة اللهجات والدعوة لها.

ودراسة اللهجات ليس محرّماً، ولا محظوراً كما يتوهم من تولّدت لديهم ردود فعلٍ عنيفة ضد اعتناء المستشرقين بها. واللهجات موضوع دراسة قديمة اهتم بها علماء اللغة وعلماء القراءات على حدّ سواء.

وقد تعودُ دراسة اللهجات بفوائد عميمة نذكر منها على سبيل المثال:

١ - تساعد دراسة اللهجات على استمرار ذلك التلاقح بين العاميّات والفصحى بما يعود على الفصحى بالخير في مجال المفردات،

والدلالات، والمعاني والأخيلة، ولا يَخفىٰ أن كثيراً مما عرّبته العامة من ألفاظ الحضارات الوافدة قد أخذ زمام السّبق إلى الاستعمال الصحيح الفصيح، فشاع في الفصحى، وأصبح جزءاً من ثروتها.

فإن ترتّب على ذلك بعض الأخطاء فهذا من تقصير الدراسات التخطيطيّة التي لا تواكب التطوّر، أو من الطور الحضاريّ المتدني الذي تعيشه العامة، فيجعل بعضهم ـ مثلاً ـ يتعمد إقحام اللفظ الأجنبيّ على هجنته بديلاً عن لفظ آخر أكثر ملاءمة لطبيعة اللغة. وبذا تزداد أهميّة التوجيه الثقافيّ والتخطيط اللغويّ والسياسيّ ليكون ذلك كلّه في صالح الفصحى، ومُقرِّباً للعاميّات من الفصحىٰ.

إن هذه هي الطريقة الطبيعيّة لنمو اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعيّة، فلا بدّ أن تكون من صنع الأمة، وليس من صنع فئة من المثقفين أو سواهم، فالمثقفون دورهم يتمثل في تسديد مسيرة التطور اللغوي وليس في صنعه ابتداء. وحتى المبادرات التي يقوم بها الخاصّة والمثقفون، ينبغي أن تكون مستساغة مقبولة لدى العامّة.

٢ ـ قد تعين دراسة اللهجات الحاليّة في الوقوف على تاريخ اللهجات العربيّة القديمة والفصحى بشكل عام، فتتكشف لنا بذلك مسائل غامضة في تاريخ العربيّة، ومسائل أخرى عن مستقبل اللغة في ضوء ذلك الربط بين ماضي لهجاتها. وقد لاحظ المستشرقون(٣٥) من خلال تركيزهم على اللهجات العربيّة أن هذه اللهجات تحمل عبر مسيرتها التاريخيّة ظواهر عربيّة، بل ساميّة موغلة في القدم كلغة «أكلوني البراغيث»، والكشكشة، والكسكسة، و «ام التعريف»، والقلب المكاني، وأوزان الأفعال، وغير ذلك مما لا يزال جارياً في هذه اللهجة

أو تلك من اللهجات الدارجة.

على أن دراسة اللهجات لا ينبغي أن تكون بهدف التمهيد لاستقلالها عن الفصحى، لتكون بديلاً عنها، وإنّما ينبغي أن تكون بهدف تسخيرها لخدمة الفصحى، وتاريخها، ومستقبلها. فما دامت اللهجات تشكل واقعاً لا ينكر على صعيد لغتنا وغيرها، فإن علينا أن نستثمر هذا الواقع في حدود ما يمكن أن يُستفاد منه. وبذا يبدو الفرق واضحاً بين هذا الدافع ودوافع المستشرقين من دراسة اللهجات.

لقد اهتم المستشرقون باللهجات اهتماماً بالغاً، فلا تكاد تخلو جامعة من جامعاتهم التي خُصَّتْ بأقسام للاستشراق من تخصيص شطر من دراساتها، وعددٍ من أساتذتها وطلابها لدراسة اللهجات الدارجة. وقد وقفت على مقال بعنوان «العربيّة» Arabisch لأحد كبار المستشرقين الألمان يشرح فيه سياسة الدراسات الاستشراقية اللغويّة في المستقبل. وهو يوجّه المستشرقين إلى ضرورة أن يدأبوا على تسجيل اللهجات الدارجة وبخاصة تلك اللهجات المتبقية من آثار العربيّة الجنوبيّة، فلم يعُد - كما يقول - من أهلها سوى نفر قليل، توشك لهجاتهم أن تندثر بتأثير اللهجات العربيّة الشماليّة الدارجة(٣٦). ويعتني المستشرقون بشكل خاص بالظواهر اللهجيّة النادرة، فيفردون لها البحوث المتخصّصة في وصفها واستيعابها.

إن الجهود المضنية التي يبذلها المستشرقون في دراسة اللهجات، أو اللغات المحليّة المندثرة (٣٧) ليذكر بتلك الجهود الكبيرة التي بذلها اللغويون في دراسة لغات الهنود الحمر المنقرضة «وقد نظر العلماء لمجهوداتهم على أنها ليست عديمة الأهميّة الأكاديميّة فحسب، ولكنها

أيضا تفتقد القيمة الحقيقيّة لأنها تعالج لغات تفتقر إلى الأهمية السياسية وتخلو من القيمة الأدبيّة والحضاريّة» (٣٨).

وهم معنيون بوضوح بدراسة لهجات اليهود والنصارى الذين يعيشون عيش الأقليات بين المسلمين، كما يعتنون كثيراً بدراسة اللهجات العربيّة للأقليات العربيّة في بلاد غير ناطقة بالعربيّة،كدراستهم للجزر اللغويّة العربيّة في روسيا، وأفريقيا، وقبرص وغيرها. وثمة دراسات مسحيّة جغرافيّة ميدانيّة مشفوعة بالأطالس التي توزع اللهجات بحسب أماكن انتشارها»(٣٩). وتتوزّع جهودهم - على أية حال - أهداف شتى، كالتأصيل اللغوي، وهو أوجهها، أو التمهيد لاستقلال هذه اللهجات عن الفصحى، وما يعنيه ذلك من تفتيت عوامل التوحّد الثقافيّ للأمة.

المنهج الإحصائي

رابعاً : الاهتمام بالدراسات الإحصائية :

لعلّ من أبرز فوائد المنهج الوصفي اهتمامه بالجانب الإحصائي، فإن هذا المنهج يهتم بالوقوف على الظواهر اللغويّة الأكثر شيوعاً في اللغة الواحدة. ولذا كانت محاولاتهم الإحصائية التي تستهدف إحصاء أكثر المفردات شيوعاً ثم أكثر التراكيب النحويّة استعمالاً. وقد دأب علماء اللغة الأوروبيون على حصر مفردات لغاتهم ودلالات هذه المفردات، وتراكيب كل لغة، وقد أخذوا يوزّعون نتائج هذه الدراسات الإحصائية على معجماتهم اللغويّة. فهذا معجم يحتوي على خمسة آلاف لفظة شائعة، وذاك يحتوي على عشرة آلاف لفظة تتضمن الخمسة السابقة،وهكذا تتطور المعاجم من خلال تدرّجها في الاستيعاب،إلى أن يصل المرء إلى موسوعات لغويّة تسجل كلّ شاردة وواردة. وقد انتفعوا بهذه المحاولات تعليميّاً، واستفادوا منها في إعادة صياغة كثير من الأعمال الأدبيّة الرفيعة بما يتناسب ومستويات الناس وأعمارهم.

وقد انعكس هذا المنهج على أعمال المستشرقين أيضاً[(٤٠)]، فقد أخذ كثير منهم باتّباع المنهج الوصفي الإحصائي في دراسة العربيّة. فكان من أظهر أعمالهم في باب المفردات ذلك العمل الجيد الذي قام به «هانز فير» في معجمه القيّم «معجم اللغة العربيّة المعاصرة: عربي ـ ألماني».
Arabisches Wörterbuch für die Schriftsprache der Gegenwart: Arabisch - Deutsch.

وقد ترجم إلى الإنجليزيّة: عربي ـ إنجليزي. ويبدو أن هذا المعجم-على أهميته ـ لم يراع أساساً مهمّاً في المنهج الإحصائيّ،

وهو إيراد الألفاظ الشائعة، فقد تضمن كثيراً من الألفاظ المهجورة.

ومن جهود المستشرقين في مجال المفردات تلك القوائم الإحصائيّة لأشهر الكلمات شيوعاً في العربيّة، ومن ذلك القائمة التي استُخلصت من لغة الصحافة العربيّة فيما بين سنتي ١٩٣٧ - ١٩٣٩م، وهي قائمة بريل:

Mosche Brill: The Basic Word of the Arabic Daily Newspaper, Jerusalem 1940.

وتليها زمناً قائمة لانداو التي تناول فيها إلى جانب مفردات الصحافة الشائعة المفردات الأساسيّة للنثر الأدبي.

Jakob M. Landau: A Word Count of modern Arabic Prose, New York 1959.

وثمّة قائمة ثالثة صدرت عن معهد شملان (وهو معهد للدبلوماسيين البريطانيين في بيروت).

A Selected Word list of Modern Literary Arabic Complied by the Middle East Centre for Arab Studies (MECAS), Shemlan, Lebanon, Beirut 1969[2].

وثمّة قائمة بالألفاظ العربيّة الشائعة: فرنسي - عربي، عربي - فرنسي، صدرت عن:

Comité Consultatif Maghrébin Pour L'Education et L'Enseignement.

وقد نشرت بعنوان: الرصيد اللغويّ الوظيفيّ:

L'Arabe fonctionnel, Tunis 1974[2].

ولعل من آخر ما أعده المستشرقون في هذا المجال القائمتين

اللتين أعدهما المستشرق الألماني هارتموت بوبتسين ضمن دراسات في النحو العربيّ - الألمانيّ المقارن، وقد نقلنا هاتين القائمتين إلى العربيّة فصدرتا في كتاب واحد عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة بعنوان:

«الأفعال الشائعة في العربيّة المعاصرة».

كما أعد مستشرق ألماني آخر هو W.D. Fromm قائمة حول الألفاظ الشائعة في لغة الصحافة، هي:

Frequency dictionary of modern newspaper Arabic: A skeleton vocabulary: Arabic - German - English, Leipzig 1982.

ومما يلاحظ أن الجهود الإحصائيّة تركّزت على جانب المفردات، أمّا التراكيب فما تزال تنتظر جهوداً رائدة تحدد لنا أنماط الجمل من حيث كثرة شيوعها والمعاني التي تترتب على ما يمكن أن يعتريها من تقديم وتأخير وما شاكل ذلك من مشكلات تركيبيّة وأسلوبيّة.

أهمّيّة المنهج الإحصائيّ:

لا شكّ في أهمّيّة الجهود الإحصائيّة التي تُبذل في سبيل حصر مفردات اللغة، أو صيغها، أو تراكيبها . . . وقد عكف الباحثون الغربيون على خدمة لغاتهم عن طريق الإحصاء منذ أوائل هذا القرن. فعاد ذلك على لغاتهم بالفوائد العميمة، وبخاصة في المجال التعليمي.

ولعلّ من أظهر فوائد الإحصاء اللغوي ما يأتي:

١ ـ على الصعيد المعجمي:

لم يَعُد التأليف المعجميّ عَمَلاً مُرْتجلاً يقوم على الاجتهاد الشخصي في اختيار الكلمات التي تقدّمها الموسوعة اللغويّة للقارىء. فقد أصبح في ميسور الباحث المعجميّ أن ينتقي مادته وفقاً لخطته التي يرمي إليها. فإن أراد من معجمه أن يقدّم أيسر الألفاظ تناولاً في اللغة وأكثرها شيوعاً تخيّر لذلك من خلال ما تسفر عنه القوائم الإحصائية لأكثر الألفاظ شيوعاً ما يفي بحاجته، وبالمقدار الذي يراه مناسباً لقارئه من حيث المستوى الثقافيّ أو العلميّ أو مستوى العمر . . . إلى غير ذلك من أهداف.

وقد تيسّر لأصحاب المعاجم أن يصنّفوا معاجمهم، فبعضها عامّ، وبعضها متخصص، وحتى المتخصصة فقد أصبح ميسوراً أن تصنف هي الأخرى، فبعضها يخص هذا الضرب من ضروب المعرفة، وبعضها يخص ضرباً آخر، وهكذا. وما تزال العربيّة في حاجة ماسّة إلى أن تلحق بالرّكْب في مجالات المعجم المتعددة.

٢ ـ على الصعيد التعليميّ:

لقد تبيّن أن الفروق واسعة بين اجتهادات المُرَبين في اختيار الألفاظ والتراكيب. ونذكر في هذا المقام أن ثلاثة من الكتب التعليميّة اجتهد أصحابها في اختيار ما يرونه مهمّاً من الأفعال العربيّة لاستعمالها في كتب العربيّة لغير الناطقين بها. فكان ما اشتركت فيه الكتب الثلاثة من أفعال قليلاً (١٥٠ فعلاً) بالمقارنة مع مجمل ما ورد في هذه الكتب من أفعال (٤١).

إنّ تبايناً كهذا ليدلّ على خطورة الارتجال والاعتماد على الخبرة الذاتيّة في تعليم اللغات. وقد أسْهمت النتائج الإحصائية بنصيب في خدمة كثير من اللغات العالميّة.

إنّ كثيراً من الكتب التعليميّة التي أُعِدَّت لتعليم الناطقين بالعربيّة، ما يزال قائماً على الاجتهاد الشخصي في اختيار ما ينبغي أن يُقدَّم للطالب سواء أكان ذلك في مجال المفردات أم في مجال التراكيب. وقد رأينا بعد عمل إحصائي يستهدف الوقوف على أشهر التراكيب الشرطيّة في العربيّة من خلال عينة واسعة من كتب التراث،

رأينا أن ما خرجنا به من نتائج يغاير مغايرة واسعة كثيراً ممّا يقدّم للطلبة من قواعد هذا الباب (٤٢).

وبحسبك أن تعلم ـ مثلاً على ذلك ـ أن عينة واسعة من كتب التطبيق النحوي (٤٣) التي أعدت لتعليم النحو، وتذليل صعابه، وقال معدوها: إنّهم اقتصروا من القواعد على ما يمكن أن يُوظّف في تقويم اللسان والقلم - بحسبك أن تعلم أن هذه الكتب قد انطوت على قواعد كثيرة في باب الشرط ـ وغيره ـ مما يندر استعماله في الواقع اللغويّ.

إنّ أدوات الشرط ـ على سبيل المثال ـ ترد في هذه الكتب مرتبة على النحو الذي جاء عليه ترتيبها في كتب النحو القديمة منذ سيبويه، كأن تُذكر"إنْ»ثمّ يُثنّى بذكر «إذ ما»... إلى أن تأتي «أيّان» في باب الظروف الشرطيّة، ولا تذكر «إذا» أو «لو» لأسباب تتعلق بالعمل النحوي مع أن النتائج الإحصائية تشير إلى أنّ«إذما» لم ترد عليها شواهد في جميع النصوص التي أحصيتها وكذلك «أيّان». بل لم أعثر لهاتين الأداتين من خارج العينة المعتمدة إلاّ على الشاهدين اليتيمين اللذين أوردهما النحاة القدامىٰ لهما.

إن كتب النحو القديمة لا تحفل بالجانب التعليمي بمقدار ما تحفل بالجانب التأصيلي للغة، وحتى ما أُعدّ منها إعداداً تعليمياً فإنّ الإمكانات الإحصائيّة والمناهج الإحصائيّة لم تكن متوفرة لديهم كما هي الحال لدينا. وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نطالبهم بمستجدّات عصرنا، بل التثريب علينا إن لم نطالب أنفسنا بتخيّر ما ينفع ممّا يستجد.

إنّ المجال مفتوح لأن تتوجّه الجهود لخدمة العربيّة في مجالات

تعليم اللغة من حيث الوقوف على أشهر الأوزان الصرفية، والتراكيب النحويّة، والمعاني البلاغيّة، ومراقبة التطوّر اللغويّ من خلال العمل الإحصائي، وتقديم العربيّة للأجيال بحسب الأصول العلميّة السليمة.

٣ ـ على الصعيد الثقافيّ:

لقد استطاع الباحثون الغربيون، عن طريق الجهود الإحصائيّة، أن يعيدوا صياغة كثير من الأعمال الأدبيّة الكبيرة. وقد أملى ذلك عليهم أمران:

ـ إن بعض هذه الأعمال قد تقادم العهد عليه ـ كروايات شكسبير مثلاً ـ فلم يَعُدْ في ميسور الناس في هذا العصر أن يفهموا بيسر ما كتبته أقلام الناس قبل قرون.

وقد أسعفتهم الأعمال الإحصائيّة في معرفة المستوى اللغوي الذي يتناسب مع هذه الفئة من الناس أو تلك وفقاً لاختلاف السِّنّ، أو الثقافة، أو المهنة، أو البيئة... إلى غير ذلك من اعتبارات. وقد أدّى افتقارنا إلى هذه النتائج الإحصائية إلى أن نقدِّم صفحات التاريخ العربيّ الإسلاميّ المشرق، والعقيدة الغرّاء، إلى الأجيال، بلغة لا تتناسب وقدرات كثير منهم؛ كأن تُقصّ السيرة النبويّة في كلّ عام على الناس بلغة ابن اسحق أو ابن هشام.

- إنّ كثيراً من الكتب العلميّة، والثقافيّة، التراثيّة والمعاصرة، المحليّة والمترجمة، تحتاج منّا إلى أن نعرف كيف نقدّمها للناس بما يتناسب ومستوياتهم اللغويّة والثقافيّة.

٤ ـ على الصعيد التاريخيّ:

الظاهرة اللغويّة ـ كأي ظاهرة اجتماعيّة ـ تلاقي ما يلاقيه الفرد في المجتمع، فقد تزدهر وقد تتضعضع، وقد تموت. وربما تزدهر في بيئة وظروف معينة، وفي الوقت نفسه، تضمحل في ظروف أخرى. وكثيراً ما تساير الظاهرة اللغويّة الواقع الذي تحلّ فيه كأن تكتسب اللفظة معنى دلالياً لا يسلخها من ماضيها، ولكنه يربطها بحاضرها.. وهكذا.

أمّا قيمة الأعمال الإحصائيّة في هذا الصـدد فهي تقف بنا على واقع اللغة في مـرحلة ما، فـإذا ما تغيّـرت الظروف اللغـويّة زمـاناً أو مكاناً... كان لزاماً أن نقوم بأعمال إحصائيّة أخرى مناظرة. وبعدئذٍ كان علينا أن نوازن بين صورة الماضي وصورة الحاضر لنعرف ما قد طرأ على أساليب اللغة، وتراكيبها، ودلالة ألفاظها...

محاذير المنهج الإحصائيّ:

لا يُقلِّل من شأن المنهج الإحصائي أن تذكر بعض التحفظات التي ينبغي أن يتنبّه إليها الباحث اللغويّ، فمـا من منهج علميّ إلّا ودربـه محفوفة باحتمالات الخطأ والصواب، والاختصار والتطويل...

ولذا فقد رأينا أن ننبّه إلى مغبّة الاطمئنان الكامل إلى نتائج هذا المنهج. ولعل أظهر ما يمكن أن يُلفت النظر إليه في هذا الصدد أنّ من الصعب على الباحث اللغويّ أن يتناول النصوص اللغويّة بِرُمَّتها. فهي متطاولة في انتمائها المكاني والزماني، متنوعة في مستويات الناطقين بها ومشاربهم العلميّة، وخلفيّاتهم الثقافية، وتخصّصاتهم.

ولذا فإنّ العينة اللغويّة التي قد يُطمأن إلى أنها تمثّل الواقع اللغوي

في أدنى البلاد، قد لا تتطابق في نتائجهـا مع العينـة التي أُخذت من أقاصيها، أو أواسطها. وقد يختلف اختلافاً ما، مـا يشيع على ألسنـة الناس في المدينة والساحل عمّا يشيع على ألسنة سـواهم في البوادي والجبال. وقد تختلف البيئـات اللغويّـة باختـلاف الواقـع السياسي أو الثقافيّ لأهلها، وقد يساعد جوارها أو تأثرها باللغات الأخرى على إعطاء نتائج مغايرة لما تعطيه النتائج المستخلصة ممَّن تأثروا بواقع آخر، وبثقافة مغايرة.

ومن الخطأ أن يُقتصر على لغة الصحافة أو الإذاعة أو التلفاز. . . في تمثيل كامل للواقع اللغويّ في جملته، كما أن من الخطأ أيضاً أنْ يُطمـأن إلى أن لغة أيٍّ من هذه الوسائل يمكن أن يمثِّل بدقّةٍ الواقعَ اللغوي لوسيلة مناظرة في بلدٍ آخر، أو زمان آخر للبلد نفسه.

وقد تكون العينة اللغويّة متحيّزة باختيار نوع من الكتّاب، عن عمد أو عن غير عمد، فتأتي النتائج مغايرة لسواها لو لم يحصل هذا التحيّز، فالكاتب الإسلاميّ مثلاً تشيع على لسانه كلمة «الجهاد» في الوقت الذي تشيع على لسان غيره كلمات أخرى، نحو «نضال» أو «كفـاح»، وتشيع على لسـان الكاتب الإسلاميّ كلمة «الأخ»، في الوقت الذي تشيع فيه على لسان غيره كلمة «السيد» أو «الرفيق» وهكذا. . .

وقـد يؤثّـر في نتـائـج العينة انحياز الكاتب إلى موضوع معيّن كالمدح أو الذم، أو إلى ثقافة معيّنة، أو تخصّص ما.

وقد تختلف نتائج عينة يجريها باحث ما عن نتائج عينة أخرى، تجري في البيئة نفسها، والزمان نفسه.

وعلى العموم فإن العمل الإحصائيّ له محاذير، وهذه إشارة إلى

بعضها، وثمة محاذير أخرى كالمَيْز بين المعاني الحقيقيّة والمجازيّة، واحتمالات الخلط بين الواقع والرمز. إلى غير ذلك. ولذا بات لزاماً أن يتنبه الباحث إلى هذه المحاذير العامة، والمحاذير الخاصّة بكلّ بحث على حِدَة، مع استعراض ذلك كله في البداية وإيجاد الحلول المناسبة للتخلص من المحاذير أو التخفيف ما أمكن من نتائجها السلبيّة.

دعوة إلى تدريس «البرمجة الإحصائيّة واستخدام الحاسوب»

لعلّ من أظهر ما يلفت في أقسام اللغة العربيّة في كثير من الجامعات العربيّة ميلها إلى المحافظة التي تتّسم بالانطوائية، والابتعاد عن التجديد العمليّ، أو تطرّفها في الانفلات الذي يتّسم بالتركيز على النظريات والحَوْم حولها من غير اهتمام واضح بالجوانب العمليّة التي تقدّم الحلول لكثير من المشكلات. فالبرمجة الإحصائيّة واستخدام الأجهزة المتطوّرة في الإحصاء، يحتاج إليها الباحث العربيّ بإلحاح ليصل في خدمة لغته إلى شيء ممّا وصل إليه كثير من الباحثين في خدمة لغاتهم.

ولذا كان لا بدّ من التعجيل في تطوير برامج أقسام اللغة العربيّة بما يسمح بإدخال بعض المواد العمليّة كدراسة البرمجة الإحصائيّة واستخدام الحاسوب ودراسة الأصوات دراسة معمليّة من خلال الأجهزة الدقيقة، وتوخّي الجانب العملي في ذلك، والإفادة من العلوم التطبيقيّة التي تعتني بها أقسام أخرى.

خامساً : الاهتمام بالجانب الصوتيّ في دراسة اللغة :

ويأتي الاهتمام البالغ بالأصوات من اهتمامهم العام باللغات في صورتها المنطوقة، ومن دأبهم على دراسة اللهجات، والوقوف على خصائص كل لهجة ومميزاتها، والقدر المشترك بين لهجة وأخرى.

وقد أسعفتهم الطرائق المتعدّدة في وصف الأصوات اللغويّة كطريقة الملاحظة، والتسجيل الصوتي، واستخدام الحنك الصناعي Palatography والكيمغرافيا Kymography (٤٤)، والاسبكتروجرافيا(٤٥) Spectrography وغيرها(٤٦) .

لقد أتاحت هذه الوسائل الحديثة فرصة كبيرة للتدقيق في وصف اللغات صوتياً. وقد بلغت الدقة في وصف الظاهرة الصوتية مبلغاً وصلت فيه ـ في كثير من الأحيان ـ ما وصلت إليه الظواهر الطبيعيّة. فقد أصبح في وسع الباحث أن يصف صوتاً ما في أوضاعه المختلفة من الكلمة أو الكلام،بوصفه للذبذبات التي يسجلها الاسبكتروجراف في كل حالة.

وقد أُتيحت بذلك الفرصة للعربيّة ـ كما أُتيحت لغيرها ـ أن تُوصف ظواهرها الصوتيّة، من خلال هذه الوسائل الحديثة، فكان ثمة مجال للبتّ في ما كان موضعَ خلاف بين العلماء من خلال استعمالهم للأدوات اليسيرة التي أتيحت لهم، وبالإضافة إلى ذلك تيسَّر الوقوف على مسائل مرّ بها القدماء مروراً يسيراً كنظام المقاطع Syllable والنبر Stress والتنغيم Intonation وغيرها.

إن تقدّم الدراسات اللغويّة في مجال الصوتيّات جعل علم اللغة علماً يقترب في كثير من ملامحه ومناهجه من العلوم التطبيقيّة

كالتشريح الذي يدرس مجرى التنفس ابتداء من الفم بأعضائه، والأنف، والحنجرة، وانتهاءً بالرئة. وهو كالعلوم التطبيقيّة الميدانيّة من حيث استخدام الآلات والأجهزة، واختيار العينات المناسبة مع محاولة عزلها عن المؤثرات التي يمكن أن تتدخل في صدق التجربة. ولذا كان الباحثون في اللهجات مثلاً يؤثرون دراستها من خلال بيئاتها المغلقة، كدراستها من خلال حديث العوامّ أو مَن لم يبرحوا أحياءهم وقراهم.

على أنّ من عيوب هذه الدراسات أن نتائجها قد تختلف ـ على نحوٍ أو آخر ـ بمقدار اختلاف الناس في نطق الأصوات. فالذبذبات التي يسجلها الاسبكتروجراف تختلف ولا شكّ بين أن يكون المتكلم رجلاً أو امرأة، صغيراً أو كبيراً، مثقفاً أو غير مثقف، ينتمي في خلفيته إلى هذه اللهجة أو تلك...

الهوامش

(١) انظر ترجمته إلى الإنجليزيّة التي قام بها W. Baskin بعنوان:
Course in General Linguistics, New York, 1959.

(٢) انظر فيشر + ياسترو ص ١٥ وما بعدها، وص ٣٩ وما بعدها، وفيشر (١٩٨٢) ص ٨٣.

(٣) انظر من ذلك معجم الأغلاط اللغويّة المعاصرة، ومعجم الأخطاء الشائعة، وكلاهما لمحمد العدناني، وكبوات اليراع لأبي تراب الظاهري، ولغة الجرائد لليازجي، وتذكرة الكاتب لأسعد داغر، و «قل ولا تقل» لمصطفى جواد. ومن القدماء: الزبيدي في: لحن العامة، والحريري في: درّة الغواص، وابن قتيبة في: أدب الكاتب.

(٤) ستتكيفتش ص ٢٧٩.

(٥) فيشر (المراحل الزمنيّة) ص ١٦٢.

(٦) انظر فيشر (المراحل الزمنيّة).

(٧) ماريو باي (لغات البشر) ص ١٠٨.

(٨) إبراهيم أنيس (من أسرار اللغة) ص ١٩٨.

(٩) المرجع السابق ص ١٩٩.

(١٠) المرجع السابق ص ٢٠٩.

(١١) انظر: عبد التواب (فصول في فقه العربيّة) ص ٣٦٩ وما بعدها.

(١٢) ماريو باي (لغات البشر) ص ١٠٨.

(١٣) إبراهيم أنيس (من أسرار العربيّة) ص ١٩٩.

(١٤) انظر «أولمان» (دور الكلمة في اللغة) ص ٣٩.

(١٥) انظر من هذه الدراسات:
- ريجينا هارتمن R. Hartmann

«بحوث في نحو اللغة العربيّة المكتوبة».

Untersuchungen zur Syntax der Arabischen Schriftsprache. Eine generative - transformationelle Darstellung. Wiesbaden 1974.

ـ لورنس كروبفتش Loranz Kropfitsch

تأثير الفرنسيّة على العربيّة المكتوبة في المغرب.

Lorenz Kropfitsch: Der franzosische Einflup auf die arabische Schriftsprache im Maghrib. In: ZDMG 128 (1978) 39-64.

ـ وللمؤلف السابق بحث حول تطابق الأفعال في العربيّة:

Zur Fragen der Verbalkongruenz im Neuhocharabischen. In: ZAL 1 (1978) 32-45.

ـ ول: كروبفتش أيضاً: الاتجاهات الدلاليّة في العربيّة الفصحى المعاصرة:

Semantische Tendenzen im Neuhocharabischen. In: ZAL 5 (1980) 118-136.

ـ وكتب إرنستماينتز Ernst Mainz رسالته للدكتوراه في قواعد اللغة العربيّة المعاصرة المكتوبة:

Zur Grammatik des modernen Schriftarabisch. Dissertation, Hamburg 1931.

ـ ولهانز فير Hans Wehr بحث عن «خصائص الفصحى المعاصرة»:

Die Besonderheiten des heutigen Hocharabischen. In: Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen, Berlin 37,2 (1934) 1-64.

وله أيضاً:

Entwicklung und traditionelle Pflege der arabischen Schriftsprache der Gegenwart. In: ZDMG 97 (1943) 16-46.

- وثمّة دراسة شاملة لقواعد اللغة العربيّة الفصحى المعاصرة لكـل من: J.A. Haywood و H.M. Nahmad بعنوان:

A new Arabic Grammar of the Written Language, Cambridge 1965.

- وكتب Charles Issawi عن الكلمـات الأوروبيّة الـدخيلة في العـربيّـة المكتوبة المعاصرة:

European Loanwords in contemporary Arabic Writing. A case study in modernization. In: Middle Eastern studies 3 (1966-1967) 110-133.

- و لـ: كانتارينو V. Cantarino بحث في «تراكيب النثر العربيّ الحديث» وهو في ثلاثة أجزاء:

Syntax of Modern Arabic Prose. Bloomington-London 1974-1975 (Asian Studies Research Institute. Oriental Series 4).

- و لـ: بلاو Joshua Blau بحثان في قواعد الفصحى هما: «ملاحظات على الاتجاهات التركيبيّة في العربيّة الفصحى الحديثة»:
« Remarks on some syntactic trends in Modern Standard Arabic. In: Israel Oriental Studies 3 (1973) 172-231.

«ملاحظات إضافية عن الاتجاهات التركيبيّة في العربيّة الحديثة».
- Some additional Observations on syntactic trends in Modern Standard Arabic. In: Israel Oriental Studies 6 (1976) 158-190.

- وثمّة دراسة قام بها ستتكيفتش Jaroslav Stetkevych:
The Modern Arabic Literary Language. Lexical and Stylistic Developments. Chicago - London 1970 (Publications of the Center for Middle Eastern Studies 6)

وقد ترجمها إلى العربيّة محمد حسن عبد العزيز بعنوان: العربيّة الفصحى الحديثة ـ بحوث في تطوّر الألفاظ والأساليب، مصر (بدون تاريخ).

وانظر أيضاً:

1. Arne A. Ambros: Einfuhrung in die moderne arabische Schriftsprache. München 1969.
2. A.F.L. Beeston: Written Arabic, an approach to the basic structures. Cambridge 1968.

(١٦) انظر اللسان (فنزج) ٢/٣٤٩.

(١٧) انظر صدّيقي ص ٨٢.

(١٨) الألفاظ السابقة من الفارسيّة، ويلاحظ أن ما دخل إلى العربيّة من الفارسيّة معظمه من الألفاظ المدنيّة أمّا «أنباشي» و «باشا»... فهي من التركيّـة، ومعظم الألفاظ التركيّة التي جاءت إلى العربيّـة تدخـل في باب الألفـاظ العسكريّة أو الإداريّة.

(١٩) انظر المقدمة التي صدّر بها هانز فير معجمه: «معجم اللغة العربيّة المعاصرة ـ عربي ـ ألماني».

(٢٠) أوغست فيشر (المعجم اللغوي التاريخي) ص ٢٢.

(٢١) انظر من هذه الدراسات ما يأتي:

1. Kapliwatzky, J., **Arabic Language and Grammer,** Part 4, 2nd, Jerusalem, Rubin Mass, 1954.
2. Cowan, D., **An Introduction to Modern Literary Arabic,** Cambridge, Cambridge University Press, 1958.
3. Fergeson, C and M., El Ani, **Lessons in Contemporary Arabic,** Part I, Lessons 1-8, Washington, D.C. Center of Applied Linguistics, 1960.
4. Abboud, P. et al., **Elementary Modern Standard Arabic 2** Parts, 2nd ed., Ann Arbor, Department of Near Eastern Studies, University of Michigan, 1975.
5. Bateson, M.C., **Arabic Language Handbook,** Washington D.C. Center for Applied Linguistics, 1967.
   Bishai, W.B., **Concise Grammar of Literary Arabic. A New Approach,** New York, Kendall Hunt Publishing Company, 1971.

6. Thatcher, G.W., **Arabic Grammar of the Written Language,** 4th ed., New York, Frederick Ungar Publishing Company, 1942.
7. Thorenton, F., and R. Nichlson, **Elementary Arabic, First Reading Book,** Cambridge, Cambridge University Press, 1957.
8. Ziadeh, F. and B. Winder, **An Introduction to Modern Arabic,** 6th ed., Part I, New Jersey. Princeton University Press, 1966.

(٢٢) انظر لمزيد من ذلك المراجع الآتية:

1. A. BLOCH und H. GRÖTZFELD: Damaszenisch-Arabische Texte. Wiesbaden 1964.
نصوص من العربيّة الدمشقيّة.
2. B. LEWIN: Arabische Texte im Dialekt von Hama. Beirut 1966.
نصوص عربيّة من لهجة حماة.
3. M.W. COWELL: A Reference Grammar of Syrian Arabic (based on the dialect of Damascus). Washington DC 1964.
المرجع في نحو العربيّة السوريّة.
4. R.L. CLEVELAND: A classification for the Arabic dialects of Jordan, BASOR 167 (1963) 56-63.
تصنيف اللهجات العربيّة في الأردن.
5. H. PALVA: Balgawi Arabic 1. Texts from Madaba. 2. Texts in the Dialect of the *yigul* Group. 3. Texts from Safut. Helsinki. 1969-1970.
العربيّة البلقاويّة:
١ ـ نصوص من مادبا.
٢ ـ نصوص من لهجة من يقولون «يِقول».
٣ ـ نصوص من سافوط.
وكلها لهجات أردنيّة.
6. R.L. CLEVELAND: Notes on an Arabic Dialect of Southern Palestine, BASOR 185 (1967) 43-57.

ملاحظات عن لهجة جنوب فلسطين العربيّة.
7. M. PIAMENTA: Studies in the Syntax of Palestinian Arabic. Jerusalem 1966.

دراسات في نحو العربيّة الفلسطينيّة.

P. QUÉMÉNEUR: Contribution à l'étude du parler de la vallée du Chélif, IBLA 21 (1958) 31-41.

8. H. SCHMIDT und P. KAHLE: Volkserzahlungen aus Palastina, gesammelt bei den Bauern von Bir Zet I. II. Gottingen 1918. 1930.

حكايات شعبيّة من فلسطين.

9. R.S. HARRELL, L.Y. TEWFIK and G.D. SELIM: Lessons in Colloquial Egyptian Arabic. Georgetown 1963.

دروس في المصريّة الدارجة.

10. W.H.T. GAIRDNER: Egyptian Colloquial Arabic. A conversation grammar. London-Oxford [2]1926.

العربيّة الدارجة في مصر.

11. W. SPITTA: Grammatik des arabischen Vulgardialectes von Aegypten. Leipzig 1880.

قواعد العربيّة الدارجة في مصر.

12. M. WOIDICH: Ein arabischer Bauerndialekt aus dem sudlichen Oberagypten, ZDMG 124 (1974) 42-58.

إحدى اللهجات الفلاحيّة في جنوب مصر العليا.

13. M. WOIDICH: Zum Dialekt von il-Awamra in der ostlichen Sarqiyya (Agypten). Teil I: Einleitung, grammatische Skizze und Volkskundliches, ZAL 2 (1979) 76-99, Teil I : Texte und Glossar, ZAL 4 (1980), 31-60.

حول لهجة العوامرة في محافظة الشرقيّة بمصر.

14. B.E. CLARITY and K. STOWASSER and R.G. WOLFE: A Dictionary of Iraqi Arabic. English-Arabic. Washington DC 1964.

معجم في اللهجة العراقيّة.

15. R.J.Mc CARTHY and F. RAFFOULI: Spoken Arabic of Baghdad I. II. Beirut 1964-1965.

العربيّة المحكيّة في بغداد.

16. B. MEISSNER: Neuarabische Geschichten aus dem Iraq, Beitrage zur Assyriologie und semitischen Sprachwissenschaft 5 (1903).

قصص عربيّة حديثة من العراق.

17. F. GOITEIN: Jemenica. Sprichwörter und Redensarten aus Zentral-Jemen. Leipzig 1934.

المرجع في نحو العربيّة السوريّة.

18. S. HILLELSON: Sudan Arabic Texts. Cambridge 1935.

نصوص من العربيّة السودانيّة.

19. J.S. TRIMINGHAM: Sudan Colloquial Arabic. London-Oxford [2]1946.

العربيّة الدارجة في السودان.

J.S. WILLMORE: The Spoken Arabic of Egypt. London [3]1919.

20. B. INGHAM: Some characteristics of Meccan Arabic, BSOAS 34 (1971) 273-297.

بعض خصائص عربيّة مكة.

21. G.SCHREIBER: Der Arabische Dialekt von Mekka. AbriB der Grammatik mit Texten und Glossar. (Dissertation Munster/ Westf.) 1970.

اللهجة الدارجة في مكّة..

22. C. REINHARDT: Ein arabischer Dialekt gesprochen in Oman und Zanzibar. Berlin 1894.

إحدى اللهجات العربيّة المحكيّة في عُمان وزنجبار.

23. N. RHODOKANAKIS: Der vulgararabische Dialekt im Dofar (Zfar) I. II. Wien 1908. 1911.

العربيّة الدارجة في ظُفار.

24. R.S. HARRELL: A Short Reference Grammar of Moroccan Arabic. Washington DC 1962.

المرجع المختصر في نحو اللهجة المغربيّة.

25. H.R. SINGER: Handbuch des Tunisischen I. Grammatik der arabischen Mundart der Medina von Tunis. Berlin.

26. A. SOCIN: Zum arabischen Dialekt von Marokko. Leipzig 1893.

حول اللهجة المغربيّة.

27. H. STUMME: Tripolitanisch-tunisische Beduinenlieder. Leipzig 1894.

أغاني البدو في طرابلس الغرب وتونس.

28. H. STUMME: Grammatik des tunisischen Arabisch. Leipzig 1896.

قواعد العربيّة التونسيّة.

29. H. STUMME: Märchen und Gedichte aus der Stadt Tripolis in Nordafrika. Leipzig 1898.

حكايات وقصائد من طرابلس الغرب وشمال أفريقيا.

(٢٣) انظر:
Hans Kofler: Reste altarabischer Dialekte. In: WZKM 47 (1940) 61-130, 233-262; 48 (1941) 52-88, 247-274; 49 (1942) 15-30.

و «ساراو» في دراسته «انقسام اللهجات العربيّة القديمة»:

Chr. Sarauw: Die altarabische Dialiktpaltung. In: ZA 21 (1908) 31-49.

وفوللرز في كتابه «اللغة الشعبيّة واللغة المكتوبة في بلاد العرب القديمة»:
Karl Vollers: Volkssprache und Schriftsprach in alten Arabien. Strassburg 1906.

(٢٤) انظر مقدمة كتاب نولدكه هذا ص ١.

(٢٥) انظر كتاب نولدكه السابق ص ٢.

(٢٦) ماريوباي (لغات البشر) ص ٧٤.

(٢٧) شاتليه ص ٣٦.

(٢٨) عمر فرّوخ ص ١٢٥.

(٢٩) ستتكيفتش ص ١٨ ـ ١٩.

(٣٠) يتحسّس بعض المستشرقين تحسّساً بالغاً من أن ينعتوا بسوء النيّة في دعواهم هذه، وهم يرون أنّهم بالدعوة إلى العاميّة يعملون على حل المشكلات اللغويّة، كالازدواجية، التي يَعدّونها من مشكلات هذه الأمّة. وقد يكون من هؤلاء من هو صادق مع نفسه، فإنّ منهم أو ممن سار مثلهم على المنهج الوصفيّ في بلادهم، من دعا إلى العاميّات هناك أيضاً، انطلاقاً من اعتبارات لغويّة تعليميّة. ولكن هؤلاء قد رُدَّت آراؤهم لاعتبارات قوميّة أو حضاريّة غايتها الحفاظ على وحدة الأمة التي ينتمون إليها، ولذا كان من حقنا نحن ـ من باب أولى ـ أن نرفض العاميّات وأن نتشبث بالفصحى نظراً لتلك الاعتبارات، ولاعتبارات أهم وهي الحفاظ على ديننا وعقيدتنا الإسلاميّة.

انظر ما كتبه فولف ڤانق فرويند في الدراسة التي قام بها عن الدين واللغة في قضيّة تطور العالم الإسلامي العربي (باعتباره من الدول الناميّة):

Wolfgang S. Freund: Religion und Sprache im Entwicklungs prozess der arabisch islamischen Welt. In: Das arabische Mittelmeer - Entwicklungs probleme. Hintergrundstudien zum

Nahostkonflikt. Munschen 1974 89-110.

(٣١) «فيشر» (المراحل الزمنيّة) ص ١٦٢.

(٣٢) انظر حول هذا الموضوع ما كتبه فيرنر ديم:

Hochsprache und Dialekt im Arabischen. Untersuchungen zur heutigen arabischen Zweisprachigkeit. Wiesbaden 1974 (Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes 41, 1).

(٣٣) وتتعدد اللهجات في ألمانيا تعدّداً كبيراً، فهي تزيد على أربعمائة لهجة، وهي تتفاوت في قربها من اللغة الألمانية الفصحى Hochdeutsch كلهجة أهل هامبروغ، أو تبتعد عنها كلهجة الشفابيين في جنوب ألمانيا، وقد لا يفهم ألماني ألمانياً آخر بيسر إذا تحدّث كلّ بلهجته. ولكنّ اللغة الفصحى تجمع بينهم جميعاً. وقد لوحظ أن اللهجات الألمانيّة أخذت تقترب من الفصحى بازدياد الثقافة والمواصلات ووسائل الإعلام... وهذا ما يلاحظ بالنسبة للعربيّة ولكن بصورة أبطأ. أمّا الإنجليزيّة فلا شكّ في أن مستويات الحديث فيها تتزايد بُعْداً بين الناطقين بها في جزيرتها الأمّ، وفي أمريكا، وفي الأصقاع العديدة البعيدة التي وصلت إليها كالهند، وكندا، واستراليا، وغيرها.

(٣٤) ماريوباي (لغات البشر) ص ٨٥.

(٣٥) لا شك في تأثر المستشرقين في ذلك بمحاولات اللغويين الغربيين الذين ساروا على المنهج الوصفيّ في محاولة منهم لأن يعيدوا صياغة اللغات الرومانسيّة البدائيّة على أساس اللهجات الرومانسية التي يتحدثها الناس في الوقت الحاضر، انظر ماريو باي (لغات البشر) ص ٧١.

(٣٦) انظر مقالة شبيتالر Arabisch.

(٣٧) ومن ذلك الدراسات التي أجراها المستشرقون حول بقايا اللغة السريانيّة في طور عابدين والموصل. وقد كان جلّ المهتمين بهذه المحاولات من الرهبان

النساطرة والبعثات التنصيريّة الأمريكيّة، ولكن محاولاتهم جميعاً لم تنجح في إعادة الحياة لهذه اللغة البائدة. انظر بروكلمان (١٩١٦) ص ٣٩.

(٣٨) ماريوباي (لغات البشر) ص ٧٦.

(٣٩) ولعلّ من أقدم محاولات المستشرقين في وضع الأطالس اللغويّة محاولة بيرجشتريسر الذي نشرها سنة ١٩١٥ عن اللهجات في سوريا وفلسطين.

(٤٠) لقد قام بعض الباحثين العرب ببعض الجهود الإحصائية، ولكننا لا نذكرها هنا، فليس هذا مكان ذكرها.

(٤١) انظر بوبتسين ص ١٦.

(٤٢) انظر في هذا الدراسة التي أعددتُها بالألمانيّة، وقد استخدمت الكمبيوتر في العمليّة الإحصائية للتراكيب الشرطيّة في العربيّة. عمايرة (١٩٨٣) وانظر أيضاً عمايرة (نظرة مقارنة)

(٤٣) انظر مثلاً النحو الوظيفيّ لعبد العليم إبراهيم، والتطبيق النحوي لعبده الراجحي...

(٤٤) تقوم طريقة الملاحظة على محاولة الباحث سماع الأصوات وهي تنطق في سياقها اللغويّ الحيّ من المستعمل اللغويّ. أما طريقة التسجيل الصوتيّ فقائمة على محاولة وصف الأصوات عن طريق تكرار سماعها من آلة التسجيل. وتقوم طريقة الحنك الصناعيّ على وصف الأصوات من خلال البصمات التي يتركها نطق الصوت الذي يراد وصفه على حنك صناعي يلصق بالفم، وقد طُلي هذا الحنك ذو اللون الأسود بنوع من الطلاء الأبيض، فإذا أردنا أن نصف حرف الكاف في كلمة «كامل» مثلاً لاحظنا أثر انمحاء البياض الذي ترتّب على اصطدام اللسان بالحنك الصناعيّ كاشفاً عن اللون الأسود الحقيقيّ للفك الصناعيّ، ثم يقوم الباحث بعد تكرار التجربة وتصويرها في كل مرّة، بوصف الصوت وبيان مميزاته عن الأصوات المشابهة كالقاف والجيم والخاء وما شاكلها. أما طريقة الكيمغرافيا فمفادها أن يسجل سِنُّ الكيموغراف خطوطاً على سطح طبلة حساسّة تهتز بخروج

الصوت من فم المتكلم فيرسم سن الكيمغراف خطوطاً على الطبلة تتفاوت أشكالها وتموّجاتها باختلاف الأصوات. وقد يكون لجهاز الكيمغراف أكثر من سن كسنٍ يوصل بالفم، وآخر بالحنجرة (لمعرفة ما إن كان الصوت مجهوراً أو مهموساً) وثالث بالأنف (لمعرفة ما إن كان الصوت مُغناً أم غير مُغَنّ). انظر لمزيد من التعريف، بهذه الطرق: تمام حسان (مناهج البحث اللغوي) ص ٦٩ - ٨٢.

(٤٥) ويتم تحليل الكلام بهذه الطريقة عن طريق الاسبكتوجراف بتحويل الأصوات إلى صور مرئيّة ذات بعدين: أحدهما عمودي ويمثل ذبذبة الكلام، والآخر أفقيّ يمثل الزمن. وتظهر شدّة الصوت في درجات متفاوتة من السواد بناء على مصدر الصوت. وللمزيد من التفصيل انظر سلمان العاني ص ٣٠ - ٣٢.

(٤٦) من الدراسات الاستشراقيّة التي جرت في مجال الجانب الصوتيّ للعربيّة نذكر ما يأتي:

١ - ج ١٧. فالين G.A. Wallin

حول أصوات العربيّة ومواصفاتها:
Über die Laute des Arabischen und ihre Bezeichnung». In ZDMG 1355, 1162, 1853, (599-665).

٢ - فولف ديتريش فيشر Wolfdietrich Fischer

بناء المقاطع والحركات في العربيّة:
Silbenstruktur und Vokalismus im Arabischen. In: ZDMG 117 (1967) 3-77.

٣ - هاريس بيركلاند Harris Birkeland

نظام النبر في العربيّة.
Stress Patterns in Arabic, Oslo, Dybwad 1954.

٤ - رتشارد هاريل وحاييم بلانك ولهما «مساهمات في اللسانيات العربيّة».
Richard Harrel S. and Haim Blank. Contributions to Arabic Linguistics, Cambridge 1960.

٥ ـ ج. كمبفماير G. Kampffmeyer

التنغيم في اللغة العربيّة.

Untersuchung über den Ton im Arabischen Mitt. d. Seminars f. Orientsprachen XI. (Berlin 1908) p. 1-59.

٦ ـ و. هـ. ت غاردنير W.H.T. Gairdner

الصوتيات العربيّة.

The Phonetics of Arabic, Oxford 1925.

٧ ـ ك. بروكلمان C. Brockelmann

في الجزء الأول من كتابه المشهور:

Grundriss des vergleichenden Grammatik der Semitischen Sprachen, Berlin 1908.

٨ ـ وانظر أيضاً حول «أنماط النبر في العربيّة».

Harris Birkeland, Stress Patterns in Arabic (Skrifter utgitt av Det Norske Videnskaps-Akademi i Oslow, Hist. - filos. Klasse 1954, 3). Oslo 1954.

مــراجــع

(إضافة إلى ما مرّ في الحواشي، نذكر هنا بعض المراجع التي أفدنا منها، وقد أوردناها وفقاً للمختصرات التي جاءت عليها أثناء البحث).

إبراهيم أنيس =

إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، القاهرة ١٩٦٦.

أوغست فيشر =

أوغست فيشر، المعجم اللغوي التاريخي: القسم الأول، من أوّل حرف الهمزة إلى «أبد»، القاهرة، مجمع اللغة العربيّة ١٩٦٧.

أولمان =

ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، القاهرة ١٩٧٥م.

باريت (١٩٨٢) =

انظر الترجمة التي قدّمها «رودي باريت» عن حياة «إنّوليتمان» وهي منشورة في كتاب «المستشرقون الألمان» جمع صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٢ (ص ١٧٧ ـ ١٨٠).

باريـت =

رودي بـاريت، الدراسـات العربيّـة والإسلاميّـة في الجامعـات الألمانيّة، ترجمة مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، القاهـرة (بدون تاريخ).

بروكلمان (١٩١٦) =

C. Brockelmann, Semitische Sprachwissenschaft, Zweite verbesserte Auflage, Germany 1916.

= (GAL, SL) بوركلمان

C. Brockelmann, Geschichte der arabischen Litteratur, 2. den Suppl Bdn. angepasste Auflage. Bd. I-II. Leiden. 1943-1949. Supplement Bd. I-III. Leiden 1937-1942.

بعلبـكي =

رمزي بعلبكي، الكتابة العربيّة والسّاميّـة، الطبعـة الأولى، دار العلم للملايين، ١٩٨١.

بـكالا =

M. H. Bakalla, Bibliographe of arabic Linguistics. Londen: Mansell, 1975.

بيرجشتريسر =

G. Bergstrasser, Sprachatlas von Syrien und Palastina, Leipzig 1915.

تيمـور =

أحمد تيمور، لهجات العرب، سلسلة المكتبة الثقافيـة، العدد ٢٩٠، الهيئة المصريّة العامة للكتاب ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

تـرومب =
Ernst Trumpp, Einleitung in das Studium der arabischen Grammatiker. Die Ajrumiyyah des Munchen 1876.

جزرينيـوس =
Wilhelm Gesenius, Hebraisches und Aramaisches Handworter buch uber das Alte Testament, bearbeitet un von Dr. Frants Buhl, 17. Auflage, Germany 1962.

ابن جنّـي =
أبـو الفتح عثمـان بن جنّي، الخصـائص، تحقيق محمـد علي النجار، دار الهدى، بيروت (بدون تاريخ).

الجـواليقي =
أبـو منصور الجـواليقي، التكملة فيما يلحن فيـه العامّـة، نشـر ديرنبورغ، لايبزغ ١٨٧٥م.

جـوردن =
C. H. Gordon, Ugaritic Manual, Roma 1947.

أبو حيّان =
محمد بن يوسف أبو حيان الأنـدلسي، تفسير البحـر المحيط، الطبعة الثانية، دار الفكر ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

ابن خالويـه =
الحسين بن أحمـد بن حمدان بن خـالويـه، مختصر في شـواذ القرآن، نشرةج. بيرجشتراسر، دار الهجرة (مصورة عن طبعة لايبزج).

الخليل بن أحمد =
الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تحقيق عبدالله درويش، بغداد ١٩٦٧م.

خليل عمايرة =
خليل أحمد عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها، الطبعة الأولى، عالم المعرفة، جدّة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

خوارزمي =
محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، مفاتيح العلوم، بيروت (بدون تاريخ).
دوزي =
راينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربيّة، ترجمة محمد سليم النعيميّ، العراق ١٩ - ١٩٨٢.

ديتريش =
ألبرت ديتريش، الدراسات العربيّة في ألمانيا - تطورها التاريخي ووضعها الحالي، فرانز شتاينر، فيسبادن ١٩٦٢م - ١٣٨٢هـ.

ديم =
W. Diem, «Bibliographie Sekundar Literatur zur einheimischen arabischen Grammatikschreibumg Historiographia Linguistica 8 (1981) pp. 431-486.

رايت =
W. Wright, «A Grammar of the Arabic Language ed. Cambridge 1896-1898 Reprint 1951.

روسلر (١٩٥٠) =
Otto Rossler: Verbalbau und Verbalflexion in den Semitohamiti Sprachen, in: ZDMG 100, 1950.

ريمشنايدر =
Kasper K. Riemschneider, Lehrbuch des Akkadischen,

Leipzig 1969.

الزبيـدي =

أبو بكر الـزبيدي، لحن العـوام، تحقيق رمضان عبـد التوّاب، القاهرة ١٩٦٤.

الزِّركلـي =

خيـر الدين الـزِّركلي، الأعـلام، الـطبعـة الـرابعـة، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩.

سارطـون =

جورج سارطون، الثقافة الغربيّة في رعاية الشرق الأوسط، ترجمة عمر فرّوخ، المكتب التجاري، بيروت ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.

السامـرائي =

إبراهيم السامرائي، دراسات في اللغة، بغداد ١٩٦١.

سـزگين =

Fuat Sezgin, Geschichte des arabischen Schrifttums, 1967-1979 Leiden.

ابن السكيـت =

ابن السكيت، إصلاح المنطق، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة ١٩٥٦.

السيوطـي =

عبـد الرحمن جـلال الدين السيـوطي، المزهـر في علوم اللغة وأنـواعها، شـرحه وضبـطه محمد أحمـد جاد المـولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر (بدون تاريخ).

سيبويـه =

عمرو بن عثمان بن قنبـر، كتاب سيبـويه، تحقيق عبـد السلام هارون، الهيئة المصريّة العامة للكُتّاب.

صدِّيقـي =

A. Siddiqi, Studien uber die Persischen Fremdworter im Klassischen Arabisch, Gottingen 1919.

شاتليـه =

شاتليه، الغارة على العالم الإسلاميّ، ترجمة وتلخيص مساعد اليافي، ومحب الدين الخطيب.

أبو الطيـب =

أبو الطيّب اللغويّ، كتاب الإبدال، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق ١٩٦٠.

عبد التـوّاب =

رمضان عبد التوّاب، التطوّر اللغوي، القاهرة ١٩٨١.

عبد التوّاب =

رمضـان عبـد التـواب: فصـول في فقـه العـربيّة ط. الثانية مكتبة الخانجي ـ القاهرة (بدون تاريخ).

عبـــده =

داود عبـده، أبحاث في اللغـة العربيّـة، مكتبة لبنـان، بيـروت ١٩٧٣.

عـزيزي =

روكس بن زائد العزيزي، ألف ليلة وليلة، مجلّة أفكار، عمّان

عدد نيسان ١٩٧٥ (ص: ٦١).

عقيقي =

نجيب العقيقي، المستشرقون، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة (بدون تاريخ).

عمايرة =

إسماعيل أحمد عمايرة: معالم دارسة في الصرف - الأقيسة الفعليّة المهجورة، إربد - الأردن ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

عمايرة (المستشرقون ونظريّاتهم):

إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة العربيّة، مكتبة الملاحي، إربد - الأردن. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

عمايرة (نظرة مقارنة) =

إسماعيل أحمد عمايرة، نظرة مقارنة إلى المدرسة النحويّة العربيّة من خلال باب الشرط، مجلّة دراسات - العلوم الإنسانية والتراث، الجامعة الأردنية المجلد ١١، العدد ٤ (١٩٨٤).

عمر فرّوخ =

عمر فرّوخ، القوميّة الفصحى، بيروت ١٩٦١.

فاني =

ميشال فاني، قراءة تاريخيّة للاستشراق في إيطاليا، مجلّة الفكر العربي، العدد ٣١، بيروت ١٩٨٣ (ص ٢٠٣ - ٢٢٤).

فرينكل =

Sigmund Fraenkl: Die aramaischen Fremdworter im Ara-

bischen. Leiden 1878.

فـوك (١٩٤٤) =
Johann Fuck, «Die arabischen Studien in Europa von 12. bis in den Anfang des 19. Jahrhunderts» in: Beitrage zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft, Leipzig 1944.

فـوك (١٩٨٢) =
أ ـ انظر الترجمة التي قام بها يوهان فوك لحياة: يوهـان يعقوب رايسكة وهي منشورة في كتاب: المستشرقون الألمان، جمع صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيـروت ١٩٨٢ (ص ١٥ ـ ٢٧).

ب ـ انظر الترجمة التي كتبها يوهان فوك عن حياة: كارل بروكلمان في كتـاب: المستشرقـون الألمـان، جمـع صـلاح الـدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٢ (ص ١٥٣ ـ ١٦٢).

فـولرز =
Karl Vollers, Vollkssprache und Schriftsprache im alten Arabien, Strassburg 1906.

فون زودن =
W. Von Soden, Grundriss der akkadischen Grammatik, Roma 1925.

فيشر + ياسترو =
Wolfdietrich Fischer u. Otto Jastrow, Lehrgang fur die arabische Schriftsprache der Gegenwart. Wiesbaden 1977, 1979.

فيشـر =
فولف ديتريش فيشر: المراحل الزمنيّة للعربيّة الفصحى، ترجمة

إسمـاعيل أحمـد عمايرة، المجلّة الثقافيّة (الجامعة الأردنية) العدد ١٢/١٣، ١٩٨٧م.

الفيروز آبادي =
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، بيروت (بدون تاريخ).

القفطـي =
جمال الدين القفطي، إخبار العلماء بأخبـار الحكماء، القـاهرة ١٣٢٦هـ.

قـوزي =
عوض محمد القوزي، المصطلح النحوي ـ نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، جامعة الرياض، الرياض ١٩٨١.

الكسائـي =
علي بن حمزة الكسائي، ما تلحن فيه العامّة، تحقيق رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

كمال بشـر =
كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٣.

لـويس =
برنارد لويس، تاريخ اهتمام الإنجليـز بالعلوم العـربيّة، الـطبعة الثانية (بدون مكان وبدون تاريخ).

ماريو بـاي =
ماريو باي، أُسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، الطبعة

الثانية، عالم الكتب، القاهرة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

المبـرّد =

أبـو العباس المبـرد، المقتضب، تحقيق محمـد عبـد الخـالق عضيمة، القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٨م.

محيـي الدين =

محيـي الـدين رمضان، في صـوتيات العـربيّة، عمّـان (بـدون تاريخ).

ابن منظـور =

جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت (بدون تاريخ).

مـوفاكو =

محمد موفاكو، الثقافة الألبانيّة في الأبجدية العربيّة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٦٨، الكويت ١٩٨٣م.

نـاصف =

علي النجدي ناصف، أبو الأسود الدؤلي، القاهرة ١٩٦٨.

نـامي =

خليل يحيى نامي، دراسات في اللغة العربيّة، دار المعارف بمصر ١٩٧٤.

نـولدكه =

Theodor Noldeke, Zur Grammatik des Classischen Arabisch. Im Anhang: Die handschriftlichen Erganzungen

in dem Handexemplar Theodor Noldekes, bearbeitet und mit Zusatzen versehen von Anton Spitaler. Darmstadt 1963.

هيكر =

Karl Hecker, Das Arabische im Rahmen der semitischen Sprachen. In: Grundriss der Arabischen Philologie, Band I: Sprachwissenschaft, Herausgegeben von W. Fischer, Wiesbaden 1982.

G. Jahn, Stbawaihi's Buch uber die Grammatik. Ubersetzt und erklart von G. Jahn. Bd. 1-3 Berlin 1884-1900.

المؤلـف وبعض أعماله العلميّة

- د. إسماعيل أحمد عمايرة.
- تخرج في الجامعة الأردنية ـ قسم اللغة العربية.
- حصل على الماجستير من جامعة عين شمس.
- حصل الدكتوراه من ألمانيا الغربية.
- رئيس سابق لقسم الاستشراق في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية/ المدينة المنورة.
- أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية/ الجامعة الأردنية عمان/حالياً.

ـ من أعماله العلميّة:

أولاً: التحقيق:

١ـ المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات (في النحو والصرف)، لأبي عليّ الفارسي، دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس ١٩٧٨.

٢ـ المسائل العسكريات (في اللغة والنحو)، لأبي علي الفارسي، تقديم وتحقيق، منشورات الجامعة الأردنيّة، عمّان ١٩٨١.

ثانياً: التأليف:

أ ـ بحوث في مجلات علميّة مُحَكَّمة:

٣ـ «أقسام الأخبار، لأبي عليّ الفارسي ـ نظرة في مادّته وتحقيق نسبته» مجلّة دراسات، مجلّة علميّة تصدر عن الجامعة الأردنيّة، قسم العلوم الإنسانيّة، المجلد السادس، العدد (١) ١٩٧٩.

٤ـ نظرة مقارنة على المدرسة النحويّة العربيّة من خلال باب الشرط، مجلّة دراسات، قسم العلوم الإنسانية، والتّراث، المجلد الحادي عشر، العدد

الرابع، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

٥- ظاهرة «بجد كفت» بين العربيّة واللغات الساميّة - دراسة مقارنة، مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني، العدد (٣١) ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦- ظاهـرة تكـرار المعاني في المعجم العربي، مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني العدد (٤٣) ١٩٩٢.

٧- نظرة مقارنة على بعض أدوات المعاني في ضوء اللغات الساميّة، مجلّة دراسات - قسم العلوم الإنسانية ١٩٩٠.

ب - كتـــب:

٨- جهـود النحـاة العـرب بين النظريّة والتطبيق، رسالة دكتوراة (بالألمانيّة) جامعة إيرلنجن - نورنبرغ - ألمانيا الغربيّة ١٩٨٣م.

٩- معجم الأدوات والضمـائـر في القرآن الكريم، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م (بالاشتراك).

١٠- معجم المصطلحات اللغويّة في كتابات المستشرقين الألمان. ألماني - عربي، عربي - ألماني، دار حنين للنشر، عمان - الأردن ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

ويصدر المؤلف سلسلة دراسات لغويّة عن دار حنين للنشر، عمان - الأردن وقد صدر من هذه السلسلة الكتب الآتية:

١١- خصائص العربيّة في الأسماء والأفعال - دراسة مقارنة في ضوء اللغات الساميّة. الطبعة الثانية، العدد (١).

١٢- معـالم دراسـة في الصـرف: الأقيسة الفعليّة المهجورة - دراسة لغويّة تأصيليّة، الطبعة الثانية، العدد (٢).

١٣- المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويّة العربيّة، الطبعة الثانية، العدد (٣).

١٤- المستشرقون ومناهجهم اللغويّة - المنهج التاريخي، والمنهج المقارن، والمنهج الوصفي، والمنهج الإحصائي. الطبعة الثانية، العدد (٤).

١٥- العدد - دراسة لغويّة مقارنة، الطبعة الثانية، العدد (٥).

١٦- ظاهرة التأنيث بين العربيّة و اللغات الساميّة، الطبعة الثانية، العدد (٦).

١٧- المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربيّة - بحث في الجذور التاريخيّة للظاهرة الاستشراقيّة، الطبعة الأولى، العدد (٧)

ثالثاً: الترجمـــة:

أ- من الألمانية إلى العربيّة:

١٨- الجُمل العربيّة المصدّرة بـ «أنْ» و «أنّ» للمستشرق الألماني فولف ديتريش فيشر، مجلّة مجمع اللغة العربيّة الأردني، العدد (٢٧) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٩- المراحل الزمنيّة للعربيّة الفصحى للمستشرق فولف ديتريش فيشر، المجلة الثقافية - الجامعة الأردنيّة، العدد (١٢/١٣)، ١٩٨٧

٢٠- الأفعال الشائعة في العربيّة المعاصرة للمستشرق الألماني هارتموت بوبتسين، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، الرياض ١٤٠٥هـ.

ب- من العربية إلى الألمانية:

٢١- المئة المنتقاة من حديث رسول الله ﷺ، دار حنين للنشر ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.